الكتاب الأول

يبدأ الكتاب الأول بمقدمة فى دراسة التاريخ، تبيِّن أن ديودور يؤمن إيمانا راسخا بعقيدة الرواقيين فى فائدة دراسة التاريخ العملية، ويقرر فيها أن ليس من أهدافه أن يجعل من تاريخه أداة لتسلية القارىء أو تزجية فراغه، أو إشباع شهوة الاطلاع فيه. كان غرضه الأول بيان ما يمكن أن تأخذ به الإنسانية من أنظمة كل بلد، ومن أغراضه ولا شك إذاعة شهرة عظماء الرجال، والتنويه بجلائل أعمالهم، حفزا للهمم، وحثا على العمل. ويتحدث بعد ذلك عن منشأ الكائنات الحية، لأن فى الأساطير ما يشير إلى أن الكائنات الحية ظهرت أول الأمر فى مصر، وكان نشوؤها ذاتيا [١، ١٠]، ولقد ظل هذا الاعتقاد سائدا إلى القرن السابع عشر بعد الميلاد. ثم يتحدث عن الآلهة، لأن مصر موطنها الأصلى فيما تقول الأساطير [١، ٩]، وليس احتفال ديودور بآلهة مصر، ناشئا عن ولع بمصر أو غرام بالوصول إلى الحقيقة، بل كان محاولة فى تفهم الدين المصرى على اعتبار أنه أصل الديانة اليونانية، فقد كان ديودور مؤمنا إيمانا عميقا بالآلهة اليونانية، ولقد تجلت شدة إيمانه بها فى حديثه عن الزلازل والفيضانات التى حدثت فى بلاد اليونان فى سنة ٣٧٣ق.م، فقد عزاها إلى غضب الآلهة وخصوصا بوزيدون إله البحر. هذا مع أنه كان مطلعا على ما أبداه الفلاسفة الطبيعيون من أسباب لهذه الزلازل، وتعليل لهذه الفيضانات.

ولقد شغله أمر الدين في مصر عن تسجيل الحوادث السياسية والاجتماعية بعض الشيء، وليس هذا شأنه دائما، فقد كان قليل الالتفات لمظاهر الدين حينما تناول تاريخ العصور المتأخرة في بلاد اليونان مثلا.

ثم ينتقل إلى تاريخ البلاد السياسي، ونظامها الاجتماعي، وعنى بتفصيل أمر الطبقات، ونوه بفضل النظام الأرستقراطي في الحكم، فقد كان ديودور من عائلة أرستقراطية، وكره تدخل العامة في السياسة وهاجم النظام الديمقراطي في كل مكان، محتجا على ما كان من انحلال أثينا من جراء إشراف العامة على سياسة البلاد.

أما المصادر التي اعتمد عليها في تاريخ مصر، فالمرجح إنه اعتمد فيما روى من عادات أهل البلاد وتقاليدهم على المؤرخ هيكاتيوس الأبدري الذي زار مصر في أوائل القرن الثالث ق.م. واعتمد في وصف البلاد والحديث عن نهر النيل على المؤرخ الجغرافي أجاثارخيديس الإكنيدي الذي عاش في الإسكندرية في القرن الثاني ق.م، وألف كتابا عن «البحر الأحمر» في خمسة أجزاء. واعتمد في الناحية التاريخية على هيرودوت.

وكثيرا ما يذكر ديودور روايات الكهنة المصريين فيما يستوضحهم من مسائل، ولعله أضاف إلى ذلك ملاحضاته الشخصية لآثار البلاد وسكانها.

وثمة مصدر آخر، فقد كانت اللغة اليونانية لغة البلاد الرسمية عندما زار ديودور مصر، وكانت كذلك منذ القرن الثالث قبل الميلاد،

وكانت سائدة فى الأوساط المتعلمة وصاحبة النفوذ، فلعل هؤلاء كانوا مصدرا من المصادر التى استقى منها معلوماته. هذا إلى أنه لم يكن من الميسور للكهنة وهم يعلمون صلته بمن يتكلمون اللغة اليونانية من أهل البلاد، أن يملوا عليه معلومات زائفة لا قدرة له على نقدها كما كان الأمر بالنسبة لهيرودوت مثلا. وهذا مما يعلى من شأن كتابه عند المؤرخين.

وفى الكتاب من الأدلة ما يحملنا على الاعتقاد بأنه رجع إلى أحسن المصادر فى استقاء تاريخه، وأنه عرض آراء مؤلفيها أحسن عرض وأصدقه، وإن الكتاب الأول الذى يكاد يكون مقصورا على تاريخ مصر، هو أدق وأوفى رواية أدبية – بعد كتاب هيرودوت – فى تاريخ البلاد، ووصف آثارها، وتقاليد أهلها.

وبعد فهذا كتاب ألف منذ حوالى ألفين من السنين، ولنصه عندنا حرمة تجعلنا نتحرج من التصرف فى ترجمته، ولذلك آثرنا الاقتراب من الأصل، مبرزين أسلوب المؤلف وطرائق تعبيره، وأبقينا على أسماء البلدان كما جرى بها قلمه، وأثبتنا فى لحق خاص ما يقابلها فى العصر الحديث، وكذلك الأمر فى الموازين والمكاييل والأطوال.

الجزء الأول

١ إن الذين اضطلعوا بكتابة «تاريخ عام» لهم على الناس أجمعين حق الشكر الجزيل لأنهم كابدوا متاعب شخصية للنهوض بالحياة الإنسانية عامة. وإن التعاليم المفيدة التى يعرضونها فى دراستهم لا تشوبها شائبة من خطر فى حين يقدمون لقرائهم أثمن تجربة. والحق أن تمثل التجربة فى كل حالة على حدة يتضمن مشاقا وأهوالا كبيرة حينما:

«عاين مدنا لشعوب كثيرة، ودرس فكرهم»[1]

وإن ما تقدمه لنا دراسة التاريخ من فهم لسقوط الآخرين ونجاحهم ليذودنا بتعليم دون مقاساة تجارب. وبعد فقد أخذ المؤرخون على عواتقهم أن يجمعوا فى رسالة واحدة بعينها الجنس الإنسانى كله – هذا الجنس الذى يقرب بعضه من بعض فى الرحم ولكنه يبتعد بعضه عن بعض فى الزمان والمكان. وبهذا النحو يعمل المؤرخون كما لو كانوا قد خلقوا أداة للعناية الإلهية. لأن العناية الإلهية بعد أن أقامت الصلات بين نظام الكواكب المرئية الثابت وبين أخلاق الناس، جعلت العالم كله تحت إشراف مستمر إلى الأبد. وأفردت لكل نصيبه وفقا لمشيئة الأقدار.

(١) البيت لهوميروس من الأوديسية الكتاب الأول، البيت الثالث

وكذلك المؤرخون يسردون حوادث الماضى فى العالم كله كما لو كان العالم بلدا واحدا، فيقدمون فى بحوثهم ثبتا واحدا لحوادث الماضى فى متناول الجميع. وجميل أن نستطيع أن نتخذ من خطأ الآخرين الأعمى موعظة لإصلاح سلوكنا وأن تكون عدتنا فى صروف حياتنا المتشابكة تقليد الذين نجحوا فى الماضى لا بحث الحوادث الراهنة. وفضلا عن ذلك، فالناس كلهم يفضلون الشيوخ على الشبان فى المشاورة لما أضفته عليهم السنون من خبرة. ولكن دراسة التاريخ تفوق التجربة الفردية بما تمتاز به حقا من الشواهد الكثيرة. ومن هنا يصح أن نعتبر تحصيل المعلومات التاريخية أفيد شىء فى صروف الحياة وتقلباتها. فمن التاريخ يتعلم الشبان حكمة الشيوخ، ويجد الشيوخ تجاربهم التى حصلوها مضاعفة. ويجعل التاريخ المواطن العادى قادرا على القيام بأعباء القيادة، ويدفع القادة بأمل الشهرة الخالدة إلى الاضطلاع بأنبل الغايات. هذا إلى أنه يجعل الجند أكثر استعدادا لمواجهة الأخطار فى سبيل بلادهم، أملا فى حسن الذكر بعد الموت، وهو يثنى الأشرار ويقمع دوافع الشر فيهم خوفا من العار الأبدى.

وبالجملة فقد كان الأمل فى طيب الذكر فى التاريخ حافزا للبعض على إنشاء المدن وللبعض الآخر على شرع القوانين التى تحيط الجمعية الإنسانية العامة بسياج من الأمان، وباعثا للكثيرين على الاجتهاد فى ابتكار الفنون والعلوم لفائدة الجنس الإنسانى. ولما كانت سعادتنا تتحقق بجماع هذه المجهودات فيجب علينا أن نكيل أعلى

أقداح الثناء لسببها الرئيسي وهو التاريخ، وينبغي لنا أن نرى في التاريخ حاميا لفضيلة النابهين، وشاهدا على رذيلة الوضعاء، ومنعما على الجنس الإنساني عامة. ذلك أنه إذا كانت الأساطير التي تدور حول العالم السفلي – وليس لها أساس من الحقيقة – عاملا كبيرا في تقوى العالم وعدله، فكم يكون التاريخ، وهو نبيّ الحق، ومعقل الفلسفة كلها، أشد قدرة في رأينا في توجيه الأخلاق الإنسانية نحو النبل والشرف؟ والحق أن الناس أجمعين – لما فطرت عليه الطبيعة الإنسانية من ضعف – يحيون فترة قصيرة فحسب من الأزل، وهم بعد هذه الحياة أموات إلى الأبد. فأولئك الذين لم يقوموا بعمل مذكور في حياتهم، عندما تفنى أجسامهم يفنى معها كل ما يتصل بحياتهم. أما الذين كسبوا الشهرة بفضائلهم، فتُذكر أعمالهم على الدوام، يهتف بها صوت التاريخ الإلهي عاليا. ومن الخير فيما أعتقد ويوافقني في ذلك العقلاء من الناس، أن نحظى بشهرة باقية لقاء نصب زائل. فهرقل مثلا قد تجشم بمحض اختياره – والروايات كلها متفقة في ذلك – طول الوقت الذي قضاه بين الناس مشاقا وأهوالا مستمرة ليفيد الإنسانية فيحظى بالخلود. أما سائر فضلاء الرجال، فقد اكتسب بعضهم مجد الأبطال، والبعض الآخر مجد الآلهة، واعتبروا جميعا أهلا لخالص الثناء، وقد خلّد التاريخ فضائلهم. وتبقى سائر الآثار زمنا قصيرا ثم تأتي عليها الصروف المختلفة، أما قوة التاريخ فتنبسط على المعمورة كلها وتتخذ من الزمان الذي يعدو على كل ما عداه حاميا للتراث المقيم بين الأعقاب. ويضيف التاريخ كذلك

قوة البيان وليس من السهل أن يجد المرء شيئا آخر أفضل من هذا. فبه فاق اليونانيون البرابرة، والعلماء الجهال. هذا إلى أنه بوساطة هذا الفن وحده يتأتى لفرد واحد أن يسود الآخرين وبجملة من القول، كل ما يعرض علينا يتخذ صورة متساوقة مع قدرة الخطيب الذى يعرضه، ونحن نسمى الرجال الفضلاء جديرين بالذكر، كأنهم ظفروا بالذكر بالقدح المعلى فى الشرف. وإذا قسِّم البيان إلى فروعه العديدة، لوقع أن الشعر يعطيك لذة لا فائدة. والقوانين تردع دون أن تهذب، وهكذا فى سائر الفروع، بعضها لا يضيف شيئا إلى سعادتك، ويسبب بعضها الآخر ضيقا ممزوجا بالفائدة، والبعض الآخر يغير الحقيقة، ولكن التاريخ وحده الذى تنسجم فيه الأقوال مع الأفعال، يتضمن فى كتبه كل الفوائد. والتاريخ كما يُرَى يحث الناس على العدل، ويثلب الأشرار، ويقرظ الصالحين، وبالاختصار فهو يفيد قرّاءه خبرة ثمينة.

٣ ولذلك كلما رأينا الذين يعنون بكتابة التاريخ يحظون بما هم أهل له من ثناء، انسقنا إلى النزول إلى حلبتهم، ولما صرفت ذهنى إلى المؤرخين السابقين، وبالرغم من موافقتى التامة على غايتهم، استخلصت من كتبهم أنهم لم يجتهدوا فى تأليفها أن يبلغوا كمال النفع كما كان ينبغى، ذلك بأنه بالرغم من أن فائدة القارئ تتحقق بفهم الكثير من الملابسات الشديدة الاختلاف، فإن أكثر المؤرخين سردوا أخبار حروب تامة فى حد ذاتها، شنها شعب واحد أو دولة

واحدة ولم يحاول إلا القليل أن يسردوا تاريخ الشعوب كلها من العصور القديمة إلى أيامهم، وحتى هؤلاء لم يضع بعضهم كل حادثة فى سياقها المناسب، وأهمل آخرون أخبار البرابرة. وأكثر من ذلك، فقد رفض بعض المؤرخين الأساطير القديمة لصعوبة تناولها، فى حين أن البعض الآخر لم يستطيعوا أن يتموا نهجهم لأن القدر اقتضب حياتهم[1].

وفضلا عن ذلك، فلم ينحدر واحد ممن تصوروا فكرة كتابة التاريخ العام بتاريخه إلى ما بعد العصر المقدونى، فقد وقف بعضهم بتاريخه عند أعمال فيليب[2]، والبعض الآخر عند أعمال الإسكندر، وبعضهم وقف به عند خلفاء الإسكندر أو سلالاتهم. وبالرغم من أن حوادث خطيرة قد وقعت فى الفترة التالية لهذا العهد، ولم تؤرخ إلى عهدنا هذا، فلم يتصد مؤرخ واحد إلى تأليفها فى سفر واحد، لضخامة العمل، ولما كانت تواريخ الحوادث، والحوادث نفسها متفرقة فى رسائل متعددة لمؤلفين مختلفين. فمن الصعب فهم هذه الفترة وتذكرها. وهكذا بعد أن فحصنا جميع المناهج التى اصطنعها كل من هؤلاء المؤرخين، عقدنا العزم على أن نأخذ بأكثرها فائدة للقارئ وأقلها مشقة عليه. ذلك أنه إذا أخذ المؤرخ على عاتقه أن يسرد – بقدر ما وسعته طاقته – ما تواتر

(١) يظهر أن ديودور يعنى هيرودوت ولم يكن له نظام ثابت فى تقويم الحوادث، وأناكسيمينيز من أهل لامبساكوس وقد قصر كتابه «يونانيات» على تاريخ اليونانيين، وايفوروس الكيمى الذى اغتاله الموت قبل أن يفرغ من كتابة تاريخه فوقف به عند سنة ٣٤٠ق.م.

(٢) فيليب الثانى ملك مقدونية ٣٥٩ – ٣٣٦ق.م. وهو أبو الإسكندر الأكبر ٣٣٦ – ٣٢٣.

لـدى النـاس من تاريخ العالـم كله كأنه تاريخ بلد واحـد، من العصور القديمـة إلى العصر الذى نعيش فيه. فسيتجشـم كما هو ظاهر مشـاقا كثيرة، ولكنه سـيؤلف أفيد الأسـفار فى عين القارىء المدقق. وسيكون فى اسـتطاعة كل قارئ أن يسـتنبط كما يشاء، من هذا الشعر – كما لو كان نبعا مترعا – ما عسـاه أن يكون ذا فائدة له فى ملابسـاته الخاصة. ويجد الكتاب الذين يتصدون لسـرد حوادث قد دونها هذا العدد الضخم من المؤرخين أن من العسير أولا الحصول على الكتب اللازمة لهم، ومن الصعب ثانيا تفهم سير الحوادث وضبطه لاختلاف المصادر وكثرتها.

هـذا من ناحية، ومن ناحية أخـرى فالموضوع الذى تحتويه دفتا سـفر واحد ويشيع فيه سـياق متصل للحوادث يكون من السهل قراءته وبسيط للغاية تتبعه وفهمه. وبالجملة ينبغى أن نعتبر هذا المنهج الأخير مـن التاريـخ أفضل من سـائر المناهج كما أن الكل أفضـل من الجزء، والسـياق المتصل خير من المتقطع كما أن الحادثة التى يضبط تاريخها بدقة أفيد من حادثة لا يعرف فى أى زمان وقعت.

ولذلـك فلما أن رأيت أن هـذا المنهج فى التأليف وهو عظيم الفائدة يتطلب عملا شـاقا وزمنا طويلا فقد اشـتغلت بـه ثلاثين عاما. واحتملت فيه مشـاقا وأخطارا جسـيمة، فزرت رقعة واسـعة من آسيا وأوربـا لأرى بنفسـى أكثر الأماكـن وخصوصا أكبرها خطـرا. فقد كان الجهـل بوصف المواقع فى الحقيقة سـببا فى كثيـر من الأخطاء التى وقـع فيها مؤرخون، لا من الطبقة المتوسـطة وحدهـا، بل ممن بلغوا ذروة الشـهرة. وكان مما سعدنى على القيام بهذا المشروع أولا وقبل كل

شيء شغفي بالدرس، فالشغف هو الذى يتيح للناس أجمعين أن يقوموا بأعمـال تبدو بعيدة التحقيق. وأتيح لى ثانيا مدد عظيم فى روما من كل ما يمت لموضوعنا بصلة. لأن سـمو هذه المدينة التى يمتد سلطاتها إلى أطـراف العالم هيأ لنا أثناء إقامتنا الطويلة فيها كثيرا من المواد القريبة المتناول، إذ لما كنا من أهل مدينة أجريوم فى صقلية، وكنا على صلات وطيدة بالرومان فى هذه الجزيرة واكتسـبنا معرفة واسـعة بلغتهم[1]، فقد وقفنا على معلومـات دقيقة لكل مراحل تاريخ الإمبراطورية الرومانية فى الوثائـق الرسـمية المحفوظة بعنايـة فى روما منذ أحقـاب عديدة. ولقد استهلت تاريخنا بسرد أساطير اليونانيين والبرابرة بعد أن محصنا – بقدر ما وسعنا الجهد – الروايات التى أدلى بها كل شعب عن عصوره القديمة.

والآن وقـد فرغ هذا السـفر، ولو أن بعض أجزائه لم ينشـر بعد، أحب أن أكتب مقدمة قصيرة تلم بأطراف الموضوع كله. فالكتب السـتة الأولى تدور حول تاريخ الفترة السـابقة لحرب طروادة[2] وأسـاطيرها، وتتنـاول الثلاثة الأولى منها تاريـخ البرابرة القديم، والثلاثة التى تليها تـكاد تكون قاصرة على تاريخ اليونانييـن، ورويت فى الكتب الإحدى عشـر التالية التاريخ العام من حرب طروادة إلى موت الإسكندر. وأثبت فى الثلاثة والعشـرين كتاب التالية سـائر الروايـات إلى مبدأ الحرب بيـن الرومانيين والغالين، تلـك الحرب[3] التى هزم فيها القائد جايوس

(١) كانت اللغة اليونانية لغة صقلية الأولى فى ذلك العصر.

(٢) المأثور أن الحرب الطروادية دارت من سنة ١١٩٢ إلى سنة ١١٨٣ق.م.

(٣) بدأت الحرب الغالية سنة ٥٩ق.م.

يوليـوس قيصر -الذى ألَّه من أجل أعماله المجيدة- أكثر قبائل الغال، وأشدها شـغفا بالحرب، ومد حدود الإمبراطورية الرومانية إلى الجزائر البريطانيــة. ولقد وقعــت الحوادث الأولى من هذه الحرب فى الســنة الأولى من الأوليمبياد الثمانين بعد المائة حين كان هيرودس Herodes حاكما فى أثينا.

٥ تلك إذن العهود التى يتناولها هذا السفر، وإنى لم أحدد بالدقة حوادث العهد السابق للحرب الطروادية لأنه لم يصلنا تقويم نطمئن إليه فى تاريخ حوادث هذه العهود. ولكنا تابعنا أبو للودوروس الآثينى[١] فى حســاب ثمانين ســنة بين الحرب الطروادية ورجوع أحفاد هرقل، ومن هذا التاريخ إلى الأوليمبياد الأولى حسبنا ٣٢٨ سنة، وحسبنا الفترة منذ حكم الملوك فى أسبرطة ومنذ الأوليمبياد الأولى إلى بدء الحرب الغالية التــى جعلناها نهاية تاريخنا بـ٧٣٠ ســنة، وهكذا يتناول هذا الســفر المؤلف من أربعين كتابا تاريخ ١١٣٨ ســنة فيما عدا العهد الذى وقعت حوادثه قبل الحرب الطروادية.

وإنا نشــرح هذه المســائل بدقة بادىء ذى بــدء لحرصنا على أن تعطى القارئ صورة عامة للموضوع كله، ولنمنع الذين دأبوا على تصنيف الكتب من مسخ أعمال غيرهم[٢] أما نحن فنرجو ألا يثير ما دوِّن فى هذا

(١) فيلسوف ومؤرخ عاش فى القرن الثانى ق.م. تناول فى كتابه «التقويم» الفترة الواقعة بين سنة ١١٨٤ وسنة ١١٩ق.م.

(٢) قال ديودور فى كتابه الجزء ٤٠، ٨ أن بعض أجزاء الكتاب وصلت إلى أيدى الجمهور قبل نشر الكتاب كله. فلعل فى هذه الجملة إشارة إلى عبث الناشرين بكتبه.

السفر كله على وجه الدقة حسدا، وأن تلاقى الأخطاء التى نتجت عن الجهل تصويبا ممن هم أكثر منا علما.

والآن وقد بينا نهجنا وغايتنا سنحاول أن نحقق ما وعدنا به من بحث.

٦ لن أثبت بحثا قائما بذاته مفصلا فى العقائد الإلهية التى اعتنقها أولئك الذين كانوا أول من أدخل عبادة الآلهة، ولا الأساطير التى رووها عن كل إله من الآلهة لأن هذا الموضوع يحتاج إلى بحث مستفيض. ولكنا سنثبت باختصار كل ما نراه متصلا بدراستنا هذه حتى لا يفوتنا شىء يستحق الذكر. أما فيما يتعلق بالجنس الإنسانى قاطبة فسأتناول بدقة الحوادث التى وقعت فى الأنحاء المعروفة من المعمورة بقدر ما يتيسر لنا فى مسائل حدثت فى هذا العهد البعيد، بادئا بأقدم العصور.

أما فى مسألة خلق الإنسان فى البدء فهناك رأيان عند أشد الفلاسفة الطبيعيين والمؤرخين تحقيقا. فبعضهم يرى أن العالم لم يحدث أبد وأنه لن يزول، ويقولون إن الجنس الإنسانى كذلك وجد منذ الأزل وأنه لم يكن هناك أبدا زمن بدأ فيه الإنسان فى الظهور[1] ويرى الآخرون أن العالم حادث وسوف يزول، ويقررون أن الجنس الإنسانى كذلك كان ظهوره الأول فى وقت معلوم.

٧ والمقول إنه فى البدء عندما كان الكون فى حالة تكوين، كانت السماء والأرض فى صورة واحدة لأن طبيعتهما كانت متحدة،

(١) كان هذا رأى أرسطو وخليفته ثيوفرست.

وبعد ذلك عندما انفصل جسماهما الواحد عن الآخر، أخذ الكون المظهر الذى يبدو فيه الآن. أما الهواء فأخذ فى حركةٍ مستمرة، وارتفع العنصر النارى فيه إلى الأجواز العليا، فكل ما له هذه الطبيعة يرتفع إلى أعلى لخفته، وهذا هو السبب فى أن الشمس وكل مجاميع الأجرام دائبة الحركة الكونية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يهبط العنصر اللزج الكثيف والمادة السائلة معا إلى أسفل لثقلهما، وهذا العنصر يتركز دائما فى نفسه ويتكثف وهكذا كوَّن البحر من السوائل وكوَّن من الأجزاء الأكثر صلابة أرضا كانت لا تزال لزجة شديدة الرخص، وعندما أرسلت الشمس أشعتها عليها صارت هذه الأرض أولا صلبة وبعدئذٍ عندما جعلت الحرارة أديم الأرض عطنا انبثقت بعض الرطوبة فى مواضع متعددة وتكونت فيها مواد عطنة مغطاة بغشاء رقيق. وتلاحظ هذه الظاهرة إلى الآن فى أرض البرك حينما تبرد الأرض ويصبح الهواء فجأة شديد الحرارة، فالعناصر الرطبة التى تحييها الحرارة كما قد بينا، تتغذى مباشرة أثناء الليل من الضباب الذى يتكثف من الهواء المحيط، أما بالنهار فتصلبها الحرارة الشديدة، وأخيرا عندما بلغت هذه الجراثيم أقصى نمائها وأصبح الغشاء شديد السخونة فتشقق، نشأت مخلوقات من جميع الأنواع. فأما التى اكتسبت منها حرارة شديدة، فقد اتخذت أجنحة وارتفعت إلى الأجواز العالية، وأما التى تعلقت بالطبيعة الأرضية فقد اندرجت بين الزواحف وسائر الهوام الأرضية. هذا فى حين أن تلك التى كان لها نصيب كبير من العنصر المائى فى

تكوينها فقد استجابت إلى المنطقة التى تشابه طبيعتها وصارت كائنات مائية. وحيث أن الأرض تزداد باستمرار صلابة بتأثير حرارة الشمس والهواء، فقد أصبحت أخيرا غير قادرة على أن تخرج أيا من الكائنات الكبيرة، وبدلا من ذلك صار كل نوع من الكائنات الحية يتولد بمعاشرة كائنٍ آخر. ويبدو أن يوريبيديس وهو تلميذ أناكساجوراس[1] الفيلسوف الطبيعى لا يرى غير الرأى الذى أسلفنا ذكره فى طبيعة الكون، فقد أورده فى مسرحية ميلانيبى هكذا:

وهكذا كانت السماء والأرض فى صورة واحدة.
ولما فتقتا وانفصلتا الواحدة عن الأخرى.
أنجبتا كل شىء وأرسلتا به إلى النور.
الأشجار وذوات الأجنحة والكواسر،
والهوام التى يغزوها البحر والإنسان الفانى.

٨ هذه إذن هى الرواية التى وصلتنا عن مبدأ تكوين العالم، ويقولون أيضا إن الناس البدائيين، وكانوا يعيشون عيشة فوضى وحشية، كانوا يخرجون إلى المراعى فرادى ويأكلون ألذ العشب وثمار الأشجار البرية، ولما كانت الحيوانات المفترسة تهاجمهم، ساعد بعضهم البعض بدافع من المصلحة، ولما حدا بهم الخوف إلى التجمع، أصبحوا بالتدريج يعرفون هيئة بعضهم بعضا. وكان منطقهم مشكلٌ لا يبين. وأخرجوا شيئا

(١) أناكساجوراس فيلسوف من المدرسة الأيونية عاش فى القرن الخامس ق.م. ويأتى ذكره ثانية فى الفصل الثامن والثلاثين.

فشـيئا ألفاظا مبينة. وبعد ذلك اصطلحوا فيما بينهم على رموز للأشـياء التى فى متناولهم، وأبان بعضهم لبعض عن أفكارهم فى كل أمر. وقامت جماعـات على هذا النحو فى العالم كلـه، ولذلك لا يتكلم الناس كلهم لغـة واحدة، لأن كل جماعة ألفت لغتها كيفما اتفق، وهذا هو تفسـير اختلاف اللغات، وهذه الجماعات البدائية للإنسـان هى أصل الشعوب كلهـا. وإذن فقـد عاش الناس الأول حياة شـاقة، فلـم تكن واحدة من مقوِّمات الحياة قد عرفت بعد، فلم تكن لهم ملابس ولم يكونوا قد عرفوا المسـاكن والنار ولم يفطنوا بتاتا إلى الغذاء المزروع. وكانوا فى الحقيقة فى جهل تام بحصـاد المحصولات البرية، فلم يهيئوا مخازن للحبوب لتفى بحاجتهم. وهكذا كان الكثيرون منهم يموتون فى الشـتاء من جراء البـرد وقلة الغذاء. ولكن التجربة علمتهم شـيئا فشـيئا أن يتخذوا من الكهوف مأوى أثناء الشتاء، وكانوا يختزنون فيها من نباتات الحقول ما أمكن الاحتفاظ به، ولما عرفوا النار وسـائر المقومات المفيدة، اكتشفت شـيئا فشيئا الفنون والحرف وسائر ما عساه أن يكون ذا فائدة فى حياة الإنسان. وبالجملة. فالضرورة وحدها هى التى علمت الإنسان كل شىء. ففى كل فن كانت الضرورة هاديا للرجل الذكى الذى أوتى يدين قادرتين على كل عمل وفصاحة منطق وذكاء عقل.

وسنكتفى بما أسلفنا فى مسألة مبدأ خلق الإنسان وحياة البدائية، فغايتنا أن نحتفظ بالتناسب فى هذا السفر.

٩ وسـنحاول الآن أن نسـرد الحوادث التى وقعت كما وصلنا فى مأثور القول، فى الأنحاء المعروفة من المعمورة. ولسـنا بقادرين أن

نتحدث عن أول من حكم من الملوك، ولا أن نتبع في هذا الصدد المؤرخين الذين يدعون معرفتهم. فمن غير المعقول أن يكون اكتشاف الكتابة قديما إلى حد أنه كان معاصرا للملوك الأول، وحتى إذا سلمنا بهذا الفرض فإنه من الواضح على أى حال أن المؤرخين فئة حديثة الظهور فى الحياة العامة. ولا يدعى اليونانيون وحدهم إنهم أقدم الأجناس، بل يشاركهم فى هذا الادعاء كثيرٌ من البرابرة، ذلك بأنهم يعتبرون أنفسهم سكان العالم الأصليين وأول من اكتشف الأشياء المفيدة فى الحياة، ويعتقدون أن حوادث تاريخهم أول ما اعتبر أهل للتسجيل. ولسنا بقادرين من ناحيتنا أن نرى وجه الحق فى أمر قِدَم كل شعب، ولا أن نقطع برأى فى أى الشعوب سبق الآخر فى القدم، وبكم من السنين سبقها. ولذلك فسوف نسرد هنا باختصار الروايات التى يدلى بها كل شعب فى قدمه وتاريخه المتقادم. فغايتنا أن نحتفظ بالتناسب فى هذا السفر، وسنتناول أولا تاريخ البرابرة، وليس ذلك لأننا نعتقد أنهم أقدم من اليونانيين كما قال إيفوروس Ephorus بل لأننا نريد أن نروى بادىء ذى بدء تاريخهم حتى إذا بدأنا قولنا فى تاريخ اليونانيين لا نقحم حادثة أجنبية فى سياق تاريخهم.

ولقد كانت مصر، كما تروى الأساطير مهد الأرباب الأول، وهناك فيما يقال بدأ رصد النجوم، هذا إلى أن حوادث كثيرة جديرة بالذكر قد سُجِّلت لعظماء الرجال فيها.

لذلك سنبدأ هذا السفر بتاريخ مصر.

١٠ يقول المصريون إنه فى البدء عندما خلق العالم ظهر الإنسان أولا فـى مصر، وذلك لاعتدال مناخ البـلاد ولطبيعة نهر النيل فإن هذا النهـر الوافر الإنتاج الذى يهيـىء الغذاء الذى ينمو نمـوا طبيعيا يقيم بسهولة أود المخلوقات بمجرد نشوئها، ذلك أن جذور الغاب واللوطس وكذلك الفول المصرى والنبات المسـمى كورسـيون[1] وكثيرا غيرها مما يشاكلها تكفل لبنى الإنسان غذاء صالحا شهيا. وهم يحاولون أن يدللوا على صحة ما يذهبون إليه من أن المخلوقات قد ظهرت أولا فى أرضهم، بـأن الأرض حول طيبة تخرج إلـى يومنا هذا فى بعض الفصول جرذانا كبيـرة الحجم غفيرة العدد إلى حد يملأ الناظر عجبا من هذه الظاهرة، وبعض هذه الجرذان تتخذ سـمتها حتى الصـدر والقدمين الأماميتين، وتأخذ فى الحركة فى حين أن بقية الجسـم لم يتشـكل بعد، وما يزال طين الأرض باقيا فيه على حالته الطبيعية. ومن هذا يتضح أنه فى البدء عندما تكوّن العالم وصار مناخ الأرض معتدلا، كان نشـوء الإنسـان لابد فى أرض مصر، لأن سائر أنحاء المعمورة فى الحقيقة لا تخرج الآن فى أى مـكان منها واحدة من أمثال هذه الكائنات الحية. ففى مصر وحدها يمكـن أن ترى بعض المخلوقات فى طريقها إلى الحياة على هذا النحو غيـر المألوف. وبالجملة، فهم يقولون إنه إذا كان أكثر الكائنات الحية قـد هلكت فى الطوفان الـذى حدث فى عهد ديوكاليون فمن الجائز أن يكون سكان مصر الجنوبية قد نجوا، لأن هذه البلاد عديمة الأمطار فى

(١) الكورسيون هو درنة النيلوفر الهندى **Nymphaea stellata** الذى ينبت على ضفاف النيل.

الغالب. أما إذا كان كان الهلاك عاما - كما يؤكد البعض - وكانت الأرض قد أنجبت من جديد أنواعا حديثة من الأحياء، فإنه - حتى على هذا الفرض - يكون مبدأ ظهور الكائنات الحية أحرى بهذه البلاد، ذلك أنه عندما اقترنت الأمطار الغزيرة التى هطلت على جميع الأنحاء، بالحرارة التى تسود مصر، أصبح المناخ فى غالب الظن شديد الملاءمة لخلق جميع الكائنات الحية من جديد. وحتى فى أيامنا هذه، قد يرى المرء فى آخر موسم الفيضان بعض الأنواع من المخلوقات فى حالة نشوء واضحة فى جميع أنحاء مصر التى تغمرها مياه الفيضان، ذلك أنه عندما تنحسر مياه النهر وتجفف الشمس حواف الطين تنشأ الحيوانات فيما يقولون، فيكون بعضها تام التكوين، فى حين أن البعض الآخر لا يزال فى طريق التكوين ملتصقا بالأرض ذاتها.

ومهما يكن من شىء، فإنه عندما تأمل سكان مصر الأول فى الكون وفى طبيعة العالم، ملئوا دهشة وإعجابا، وتصوروا أن هناك إلهين أبديين أزليين هما الشمس والقمر، يسمى أولهما أوزيريس وثانيهما إيزيس ويمكن شرح كلا هذين الاسمين بالرجوع إلى اشتقاقهما. فكلمة أوزيريس، إذا ترجمت إلى اليونانية كان معناها «كثير الأعين» والسبب فى هذه التسمية واضح. ذلك أنه لما كانت الشمس ترسل أشعتها فى كل مكان فكأنها ترى الأرض كلها والبحر بأسره بعيون كثيرة. ويتفق قول الشاعر[1] مع ما ذكرنا.

«الشمس التى تطلع على كل شىء، وتسمع كل شىء».

(١) الشاعر يعنى هوميروس، والبيت من الأوديسية ١٢، ٣٢٣.

ويطلق بعض كتّاب الأساطير القدماء عند الإغريق على أوزيريس اسم ديونيسوس Dionysus وقد يحرِّفون الاسم إلى سيريوس Sirion ومن بين هؤلاء يومولبوس[1] Eumolpus إذ يقول فى قصيدته فى مدح باخوس Bacchus

«ديونيسوس لماعٌ كالنجم، نارىّ الضوء».

وأورفيوس Orpheus حين يقول

«ولهذا يدعوه الناس فانيس[2] وديونيسوس»

ويقول البعض إن العباءة المتخذة من جلد الغزال التى يرتديها ترجع إلى السماء الموشاة بالنجوم. أما اسم إيزيس فلو ترجم كان معناه «القديمة» ومصدر هذه التسمية ميلادها الأبدى الأزلى. أما القرنان اللذان يوضعان فوق رأسها فيرجعان إلى المظهر الذى تبدو فيه حينما يكون القمر هلالا، وإلى البقرة التى تقدس باسمها عند المصريين. ويؤمن المصريون بأن هذين الإلهين يهيمنان على الكون بأجمعه، ويهيئان الحياة والنماء لكل شىء بوساطة فصول ثلاثة هى الربيع والصيف والشتاء، تتم دورتها فى اطراد غير ملحوظ. ومع أن هذه الفصول الثلاثة تختلف فى طبيعتها اختلافا بيناً إلا أنها تتم السنة فى انسجام تام. وهذان الإلهان يهبان أعظم القوى الطبيعية لخلق الكائنات الحية، فالإله يبعث قوى الحرارة والروح، والإلهة تبعث قوى الرطوبة والجفاف

(١) الاسم يعنى فى اليونانية «المغنى المجيد» والمأثور أنه منشىء الأسرار الإليوسية.

(٢) فانيس Phanes رب يرمز فى الطقوس الأورفية إلى جوهر الحياة. وهذه هى المرة الأولى التى يرد فيها هذا الاسم فى الأدب القديم.

وكلاهما يبعثان قوى الهواء، وهذه العناصر تنشىء كل شىء وتنميه. ومن ثم فإن الشمس والقمر ليسا سبب بلوغ هيكل العالم الطبيعي بأجمعه حد الكمال فحسب، بل إن هيكل العالم كله كذلك - فيما يدّعون - يتكون من تلك العناصر الخمسة، وهى عنصر الروح والحرارة والجفاف والرطوبة وآخرها الهواء، نعددها كما نعدد فى جسم الإنسان الرأس واليدين والرجلين وسائر الأعضاء.

١٢ واعتبر المصريون الأوائل الذين كانوا يتكلمون لسانًا مبينًا كلًا من هذه العناصر إلهًا أطلقوا عليه اسمًا خاصًا مناسبًا لطبيعته، وهكذا أطلقوا على الروح اسمًا نترجمه بزيوس، ولما رأوا أنه أصل عنصر الحياة فى الكائنات الحية نظروا إليه كما لو كان أبًا لجميع الكائنات. وهم يقولون إن أشهر شعراء اليونانيين يتفق معهم فى هذا الاعتقاد حينما يشير إلى هذا الإله قائلا.

«أبو الناس والآلهة جميعًا»(١)

وأطلقوا على النار اسمًا نترجمه بهفايستوس، فقد اعتبروه إلهًا عظيما ذا فائدة جلى لكل شىء فى الإنتاج والنمو التام واعتبروا الأرض أشبه شيء بالرحم لكل ما ينبت وأطلقوا عليها اسم «الأم» meter ويقرب من ذلك أن اليونانيين أطلقوا على الأرض اسم ديميتير demeter، وقد حرّفت هذه الكلمة قليلا على مّر الأيام فقد كان اسمها فى غابر الأزمان جيميتير gemeter «أمنا الارض» ويشهد بذلك أورفيوس فى قوله:

«الأرض أم جميع الأشياء، واهبة الغنى والنماء»

(١)هوميروس، الإلياذة ٨، ٤٩ والتعبير شائع فى الملحمتين.

أما عن عنصر الرطوبة فيقال إن القدماء أطلقوا عليه اسم أوقيانيس ومعناه «الأم الرؤوم» ولكن بعض اليونانيين يرون أن الاسم فى الأصل كان أوقيانوس: ويقول عنه الشاعر

«أوقيانوس مصدر الآلهة مع الأم تيثيس»[1]

ذلك لأن المصريين يعتقدون أن أوقيانوس هو نهر النيل عندهم وأن الآلهة نشأت على حافتيه، ومصر هى البلد الوحيد فى العالم كله الذى توجد فيه مدن كثيرة أنشأها الآلهة القدماء كزيوس zeus وهليوس helius وهرمس hermes وأبللو apollo وبان pan وإيليثويا eileithuia وكثيرين غيرهم[2]. أما عن الهواء فيقال إنهم أطلقوا عليه اسمًا يقابله فى اليونانية أثينا athena وانهم اعتبروا أثينا ابنة لزيوس، وتصوروها عذراء لأن الهواء فى حالته الطبيعية نقى ويشغل المحل الأرفع من العالم بأسره، ومن هنا جاء فى الأساطير أنها خلقت من رأس زيوس. وترجع تسميتها بتريتوجينيا tritogeneia «الثالوثية المولد» إلى أنها تغير طبيعتها ثلاث مرات فى السنة، فى الربيع والصيف والشتاء. وقد أطلقوا عليها أيضًا اسم جلاوكوبيس glaucopis [3] وليس ذلك لأنها – كما يتوهم بعض اليونانيين – زرقاء العينين، فذلك فى الحقيقة تعليل سخيف، بل لأن الهواء يبدو فى مظهره أزرق اللون. ويقولون إن هذه

(١)هوميروس، الإلياذة ٨ .٣٠٢ تيثيس tethys هى زوج أوقيانوس.

(٢)عندما زار ديودور مصر كان كثير من البلاد يحمل اسمًا يونانيًا مثل ديوسبوليس وهليوبوليس وهرموبوليس وأبوللينوبوليس وبانوبوليس وغيرها.

(٣)هذه الكنية تترجم عادة فى هوميروس «لماعة العين»

الآلهـة الآنفة الذكر تطوف حول العالم كلـه وتتجلى للناس أحياناً فى شـكل حيوانات مقدسـة، وتتخذ أحياناً أخرى مظهر الإنسان أو هيئة سائر المخلوقات. وهم يقولون إن هذا ليس حديث خرافة، بل إنه ممكن الحدوث لأن هذه الآلهة هى فى الواقع خالقة كل شىء. ولما زار الشاعر مصر وسمع هذا القصص من الكهنة، أورد الرواية السالفة فى موضوع ما من شعره كما لو كانت حقيقة واقعة فقال:

«وكذلك الآلهة، فى صورة أغراب من بلاد أجنبية»

«يتخذون مختلف الأشكال ويهيمون بين المدن»

«مطلعين على صلف الناس وبرهم سواءً[1]»

هذا مثل مما يرويه المصريون عن آلهة السماء التى تتمتع بالخلد.

١٣ ويقول المصريون إن مخلوقات أرضية ولدت من هذه الآلهة، وأنهـا كانت فى الأصل فانية ولكنها لحكمتها ولما أسـدته للإنسـانية قاطبة من خير قد حظيت بالخلود. وأن بعضهم حكموا مصر، وقد اتخذ بعـض هؤلاء لأنفسـهم ألقاباً مطابقة لألقاب الآلهة السـماوية فى اللغة المصريـة، فى حين اتخذ البعض الآخر أسـماء شـخصية مثل هليوس helius وكرونوس kronus وريا rhea وكذلك زيوس zeus الذى يسمه البعض أمونا، وأضف إلى من سبق هيرا hera وهيفايستوس hephaestus وكذلك هسـتيا hestia وأخيراً هرمس hermes. وهم يقولون إن هليوس «الشـمس» الذى يحمل نفس اسـم الجرم السماوى كان أول ملوك مصر. إلا أن بعـض الكهنة يذهب إلى أن هيفايسـتوس كان أول ملوك مصر،

(١)هوميروس: الأوديسية ١٧، ٤٨٥ – ٤٨٧

ذلك بأنه اكتشف النار، فارتقى المُلْك من أجل هذه المأثرة. فقد حدث أن أصابت صاعقة شجرة على التلال، وأخذت الغابة المجاورة تحترق، فيمم هيفايستوس شطرها، ولما كان الفصل شتاء فقد سرَّ بالنار سرورًا عظيما، ولكن لما خبت النار، طفق على الدوام يطعمها وقودًا، وفيما هو مُبْقٍ النار مشتعلة على هذا النحو، استدعى سائر الناس ليشهدوا ما نتج عنها من خير وبركة.

وتلاه في الحكم كرونوس الذى تزوج من أخته ريا وأنجب فى رواية البعض أوزيريس وإيزيس، ولكن أكثر الناس يقولون إنه أنجب زيوس وهيرا اللذين حكما العالم بأسره لما أسديا من فضل وخير، وولد لهما خمسة آلهة كل واحد منهم فى يوم من أيام النسيء الخمسة فى السنة المصرية، وأسماء هذه الآلهة التى ولدت هى أوزيريس وإيزيس وطيفون typhon وأبوللو وأفروديتى aphrodite. وأوزيريس لو ترجم إلى اليونانية كان ديونيسوس وإيزيس قريبة الشبه جدًا من ديميتير، وقد تزوج منها أوزيريس، ولما ولى الملك بذل جهده فى تحسين حال بنى الإنسان.

وأول عمل قاما به هو منع الجنس البشرى من أكل بعضهم بعضًا. وكشفت إيزيس عن غلة القمح، والشعير، وقد كانا ينموان من قبل فى الحقول مع سائر النباتات كيفما اتفق ولكن الإنسان لم يكن قد فطن إليهما بعد، أما أوزيريس فابتكر زراعة هذه الحبوب، وعندئذ غيَّر الناس جميعًا طعامهم عن رضًا لما وجدوا من لذة فى طبيعة هذه النباتات التى كشفوا عنها، وكذلك لما بدا لهم من أنه من الأفضل

أن يقلعوا عن العنف والقسوة فيما بينهم. وللتدليل على كشف الغلال المذكورة يشير المصريون إلى التقليد المرعي بينهم من قديم الزمان، فحتى في وقتنا هذا يجمع الرجال في وقت الحصاد من بواكير سنابل القمح ويقفون إلى جانبها ضاربين بين صدورهم ومنادين باسم إيزيس. وهكذا يكرمون الآلهة لما قدمت لهم وما كشفت لهم في أول الأمر. وفي بعض المدن تحمل في عيد إيزيس سوق نبات القمح والشعير مع غيرها من الأشياء في الموكب إحياء لذكرى هذه الاستكشافات التي كشفت عنها الآلهة في البدء ببراعة. وإيزيس قد سنت أيضًا – فيما يقولون – القوانين التي تعامل الناس بمقتضاها فيما بينهم بالعدل وكفوا بموجبها عن استعمال القوة دون وجه حق وعن التطاول خوفًا من العقاب. ولذلك كان اليونانيون الأقدمون يسمون ديميتير المقننة معترفين بذلك بأن الفضل يرجع إليها في أن استقرت لديهم القوانين أول الأمر.

١٥ وأسس أشياع أوزيريس – فيما يقال – مدينة ذات مائة باب في إقليم طيبة المصرى، وقد أطلقوا عليها اسم أمه، ولكن بعض الأجيال المتأخرة أطلق عليها اسم ديوسبوليس «مدينة زيوس» وأسماها البعض الآخر طيبة. وتأسيس هذه المدينة ليس موضوع خلاف بين المؤرخين فحسب، بل بين كهنة المصريين أنفسهم، إذ يؤكد الكثيرون أن أشياع أوزيريس لم يؤسسوا مدينة طيبة، وإنما أسسها أحد الملوك[1] بعد ذلك التاريخ بزمن طويل. وسنورد تاريخ عصره في المكان المناسب. وتمجيدا لوالديهما زيوس وهيرا أقيم معبد امتاز بضخامته وباهظ تكاليفه، له

(١)جاء في الفصل الخامس والأربعين أن مؤسسها هو بوسيريس

محرابان ذهبيان، أما أكبرهما فلزيوس السماوى، وأما أصغرهما فلأبيهما زيوس الذى تولى ملك مصر ويدعوه البعض آمون.

أما الآلهة الآخر الذين سبق ذكرهم فقد أقيمت لهم محاريب من ذهب ورتبت لكل منهم طقوس، ونصب كهنة للقيام عليها. وكما كان الحال مع أوزيريس وإيزيس كذلك رتبت شعائر للآلهة التى ابتكرت الحرف والصناعات، أو اخترعت شيئًا نافعًا. ومن ثم فإنه بعد اكتشاف مناجم النحاس والذهب فى إقليم طيبة، صنعت الأدوات التى استخدمها الناس فى قتل الحيوانات المفترسة، وفلاحة الأرض وفى التنافس فيما بينهم فى تمدين بلادهم، وإقامة التماثيل والمحاريب الذهبية الباهرة للآلهة. وكان أوزيريس محبًا للفلاحة أيضًا فقد ربى كابن لزيوس فى نيسا nysa فى بلاد اليمن بالقرب من مصر. ولذلك يسمى عند اليونانيين ديونيسوس وهو لفظ مشتق من اسم أبيه ومن اسم هذه البلدة. ويحدثنا هوميروس فى أناشيده عن نيسا باعتبار أنها تقع بالقرب من مصر وذلك حيث يقول:

«وهناك نيسا، جبل عال، كثيف الغابات»

«مبعدة فى فينيقية، وقريبة من جداول مصر»[1]

ويقولون إن أوزيريس وجد الكرم بالقرب من نيسا، وكذلك اكتشف طريقة عصر ثماره، فكان أول من ذاق النبيذ وأول من علم الناس كافة غرس الكرْم، واستخراج النبيذ، وقطف العنب وخزن النبيذ، وقد لاقى هرمس على يديه تكريمًا خاصًا دون سائر الآلهة لما أوتى من موهبة فذة فى استنباط ما عساه أن يكون ذا نفع فى حياة الناس جميعًا.

(١)الأناشيد الهومرية:١ ، ٨ -٩

١٦ ويرجع إلى هرمس الفضل فى الحقيقة فى تقويم لغة الإنسان، وفى أن أشياء كثيرة وضعت لها أسماء بعد أن لم يكن لها اسم إلى ذلك الحين. وهو الذى ابتكر الحروف الهجائية، ونظم شعائر العبادة، وتقديم القرابين للآلهة وكان أول من فطن إلى أفلاك النجوم، وطبيعة الأصوات وانسجامها، وأنشأ حلبة المصارعة وعنى برشاقة حركات الجسم وسلامة تكوينه، وصنع قيثارة ذات ثلاثة أوتار، كل يقابل فصلًا من فصول السنة، لأنه تخيل ثلاث درجات للصوت، الدرجة العالية والمنخفضة والمتوسطة، فالعالية تقابل الصيف، والمنخفضة الشتاء، والمتوسطة الربيع، وعلّم اليونانيين ترجمة اللغات، ولذلك سمّوه هرمس «المترجم» وبالجملة، فإن أشياع أوزيريس اتخذوا من هرمس كاتبًا مقدسًا، وأطلعوه على جميع أسرارهم، واتبعوا على الأخص مشورته، وهو الذى اهتدى إلى شجرة الزيتون وليست أثينا كما يزعم اليونانيون.

١٧ ولما كان أوزيريس محبًا للخير تواقًا إلى المعالى فقد عبَّأ -فيما يقال- جمعًا غفيرًا لأنه عقد العزم على أن يجوب العالم كله ليعلم الجنس البشرى غرس الكرم، وبذر حبوب القمح والشعير، فقد اعتقد أنه إن يجعل الناس يقلعون عن همجيتهم، ويأخذون نصيبهم من حياة التمدن، يحظ بالخلود جزاء ما أسداه من خير عميم، وهذا ما حدث فعلا. فلم يقتصر الشكر على أولئك الذين نالوا نصيبهم من هذا الخير وقت كشفه، بل إن الأجيال التالية كذلك ما زالت - عرفانًا لصنيعة هذه الآلهة فى كشف هذا الغذاء الجديد - تقدسهم كآلهة متجلية لا ريب فيها.

وبعد أن نظم أوزيريس الأمور في مصر، سلَّمْ مقاليد الحكم كله -فيما يقال- لزوجه إيزيس، ونصب هرمس مستشارًا لها، لأنه بز جميع أصدقائهما في السياسة والحكمة، ووكل إلى هرقل heracles قيادة الجيوش في جميع أركان المملكة، لأنه يمت إليه بصلة القرابة، ولأنه كان موضع إعجاب الجميع لشجاعته وقوته، ونصب حاكمين يشرف أحدهما وهو بوسيريس bousiris على المناطق التي تنحدر نحو فينيقية وساحل البحر، ويشرف الآخر وهو أنطايوس antaeus على الأقاليم المجاورة للحبشة وليبيا. أما هو فغادر مصر على رأس جيشه ليقوم بحملته ومعه أخوه الذي يدعوه اليونانيون أبوللو. وأبوللو هذا هو الذي اكتشف فيما يقال شجرة الغار الذي يتوج به الناس جميعًا تماثيل هذا الإله على التخصيص. ويعزى إلى أوزيريس اكتشاف اللبلاب الذي يعتبر مقدسًا له كما يقدسه اليونانيون لديونيسوس، ويقولون إن اللبلاب يعرف في اللغة المصرية بنبات أوزيريس وهو يفضل الكرم عند تقديم القربان، وذلك لأن الكرم يسقط أوراقه بينما اللبلاب يحتفظ بخضرته على الدوام. ولقد كان هذا رأى الأقدمين فيما يتعلق بسائر النباتات الدائمة الأخضرار، فقد قدسوا الآس لأفروديت والغار لأبوللو.

١٨ وعلى أي حال، فقد خرج -فيما يقال- مع أوزيريس في حملته هذه ولداه أنوبيس anubis ومقدون macedon اللذان امتازا بالبسالة، وحمل كلاهما معدات تسترعي الأنظار، اتُّخِذَت من حيوانات تتناسب جرأتها مع شجاعتهما، فقد اتخذ أنوبيس خوذته من جلد

الكلب، أما مقدون فقد أتخذ قناعًا يشبه وجه الذئب. ولهذا بُجِّلت هذه الحيوانـات عند المصريين. وصحب أوزيريس أيضًا فى هذه الحملة بان pan الذى بالغ المصريون فى عبادته، فلم يُقِم له الوطنيون التماثيل فى كل معبد فحسب بل أنشأوا باسمه مدينة فى إقليم طيبة دعاها الوطنيون خِمـو chemmo ومعناها لو ترجمت إلى اليونانية «مدينة بان». ورافقه كذلك ممن لهم خبرة بشـئون الفلاحة مارون maron لمهارته فى غرس الكرم، وتريبتوليموس triptolemus لكفايته فى بذر القمح وسائر عمليات حصاده، ولما أعد كل شـىء بدأ أوزيريس رحلته مخترقا الحبشة، بعد أن نذر للآلهة أن يرسـل شعره إلى أن يعود إلى مصر. وهذا هو السبب فى أن سـنَّة إطلاق الشـعر قد انتشرت فى مصر إلى عصر متأخر، وفى أن الذين يسـافرون إلى الخارج يطلقون شـعورهم إلـى أن يعودوا ثانية إلى بلادهم. وبينما كان أوزيريس فى الحبشـة، قدموا له -فيما يقال- طائفة السـاتيرين satyri ذوى الحقاء المشعرة، لأن أوزيريس كان محبًا للمرح ومولعًا بالموسـيقى والرقص. ولهذا السبب نفسه رافقه فى رحلته جمع غفير من المنشدين بينهم تسع غانيات يجدن الغناء وسائر الفنون وهـن اللائى يدعوهن اليونانيون مـوزاى musae «ربَّان الفنون»، وكان علـى رأسـهن أبوللو ومن هنا سـمى «رائد ربات الفنـون» موزيجيتيس musigetes، وقد اسـتصحب فى حملته أيضًا الساتيرين لمهارتهم فى الرقص والغناء وبراعتهم فى جميع فنون التسـلية واللهو، لأن أوزيريس لم يكن محاربًا، ولم يحشـد جنـده للمواقع والأخطار، إذ تقبلته جميع

الشعوب إلهًا عن رضًا لما حباها من نعم، وفى الحبشة عَلَّم الناس شئون الفلاحة وأنشأ مدنًا جديرة بالذكر وترك وراءه رجالا يشرفون على شئون البلاد ويجمعون الخراج.

١٩ ويحكى أنه بينما كان هؤلاء فى شاغل من أمر رحلتهم فاض النيل على جانبيه إبّان ظهور الشعرى اليمانية، وهو الوقت الذى يرتفع فيه النهر عادة، وأغرق مساحة عظيمة من أرض مصر وبخاصة المنطقة التى تقع تحت إشراف بروميثيوس prometheus، وكاد بروميثيوس أن يبخع نفسه لفرط حزنه لأن كل من كانوا فى تلك المنطقة هلكوا على بكرة أبيهم. وأطلق على النهر اسم النسر aetus لسرعة تياره وشدة تدفقه. ولما كان هرقل رجلا شهمًا توّاقًا إلى الفتوة، فقد سد الثغرة بسرعة، وأعاد النهر إلى مجراه الأصلى، ولقد جعل شعراء اليونانيين من هذه الحادثة أسطورة بأن قالوا إن هرقل قتل النسر الذى كان ينهش كبد بروميثيوس. وأقدم اسم عرف لنهر النيل هو أوقيانيس ويترجم إلى اليونانية بأوقيانوس، ويقال إنه سمى نسرًا لما حدث من فيضان. وقد أطلق عليه فيما بعد اسم إيجيبتوسaegyptus نسبة إلى ملك قديم من ملوك البلاد ويشهد الشاعر على صحة ذلك فى قوله:

«وأرسيت سفنى المقوسة فى نهر إيجيبتوس»[1]

ويصب النهر فى البحر عند بلدة تسمى ثونيس thonis، وقد كانت هذه ثغر مصر التجارى فى العصر القديم. أما آخر اسم للنهر

(١)هوميروس: الأوديسية ١٤، ٢٥٨.

وهو ما يعرف به الآن فقد اشتق من اسم الملك نيلوس nilus. وعلى أى حال، لما وصل أوزيريس إلى تخوم الحبشة ضبط مياه النهر بإقامة السدود على جانبيه حتى لا تطغى المياه على الأرض وقت الفيضان أكثر مما ينبغى. وأقام فتحات تنساب المياه منها فى رفق بمقدار، كلما دعت الحاجة. ثم واصل سيره بمحاذاة ساحل البحر الأحمر[1] مخترقًا بلاد العرب حتى وصل إلى الهند وأقاصى المعمورة. وفى الهند أنشأ مدنًا ليست بالقليلة، أطلق على إحداها اسم نيسا، فقد أراد أن يخلف هناك ما يخلد ذكرى البلدة التى نشأ فيها بالقرب من مصر. وأدخل فى نيسا من أعماق الهند زراعة اللبلاب، وهذه هى المنطقة الوحيدة فى الهند كلها وما يجاورها من البلاد التى ينمو فيها هذا النبات إلى اليوم. ثم خلف وراءه فى طول البلاد وعرضها شواهد كثيرة أخرى على إقامته، مما حمل الأجيال التالية من الهنود على التلاحى بشأن هذا الإله، مدعين أنه هندى الأصل.

٢٠ واشتغل أوزيريس كذلك بصيد الفيلة وترك وراءه فى كل مكان شواهد تشير إلى حملته الخاصة هذه، ثم اخترق سائر القبائل الأسيوية حتى عبر الدردنيل فى طريقه إلى أوربا. وفى تراقيا قتل ليكرجوس lycurgus ملك البرابرة لأنه وقف فى وجه مشروعاته، وترك وراءه مارون وقد صار إذ ذاك كهلا، ليشرف على ما غرس من نباتات

(١)البحر الأحمر عند اليونانيين الأقدمين يعنى البحر الأحمر كما نعرفه الآن والمحيط الهندى والخليج الفارسى

فـى تلك البلاد، وأوعـز إليه أن يبتنى مدينة باسـمه وهى التى تدعى مارونيـه maronea وتـرك من بعده ابنه مقدون ملـكًا على البلاد التى سـميت باسـمه مقدونيا وعهد إلى تربيتوليموس العناية بشئون الفلاحه فى أتيكا، وأخيرًا وبعد أن جاب كل أنحاء المعمورة، حبا البشر بنعمة الحبوب السـهلة الزراعة والوفيـرة الإنتاج، وعلم سـكان المناطق غير الصالحة لزراعة الكرم صنع شراب مستخرج من الشعير[1] ولكنه لا يقل كثيرًا عن النبيذ نكهة وقوة. وعند عودته إلى مصر جلب معه من جميع البلاد أحسـن الهدايا، وقد رفعه الجميع بلا اسـتثناء لعظم نفحاته إلى مرتبة الخلود، وقدسوه كما يقدسون أرباب السماوات، ولما رفع من بين الناس إلـى مصاف الآلهة، رتبت له إيزيس وهرمس الأضاحى وسـائر آيات التكريم، وأقاما له شـعائر ، واسـتحثا كثيرًا من الطقوس السرية تمجيدًا لعظمته وقوته.

٣١ وبالرغـم مـن أن الكهنة قد احتفظـوا من قديم الزمان بقصة مـوت أوزيريس فى طى الكتمان، إلا أنـه بتراخى الزمان أظهر بعضهم العامة على هذا السـر. وأوزيريس فيما يقولون كان ملك مصر الشـرعى، وقتلـه أخوة تيفـون وقد كان قويًا فاجرًا، وبعد أن مزق جثته إلى سـتة وعشـرين جزءًا أعطى كل واحد من حلفائه جزءًا. لأنه أراد أن يشركهم جميعًا فى هذا الجرم، وظن أنه يجعل منهم بذلك أعوانًا وحراسًا أقوياء لعرشه. ولكن إيزيس أخت أوزيريس وزوجه ثأرت لمقتله بمساعدة ابنها

(١)ورد ذكر الجعة المصرية فى الفصل الرابع والثلاثين باسم زيثوس

حورس horus وقضت على تيفون وشركائه، واستولت على عرش مصر، وقد نشبت الموقعة بينهم على شاطىء النهر بجوار تلك القرية التى تعرف الآن باسم أنطايوس antaeus، وهى تقع فيما يقال تجاه بلاد العرب. وقد اشتق اسم هذه القرية من اسم أنطايوس[1] الذى كان معاصرًا لأوزيريس وقد نال عقابه على يدى هرقل. ومهما يكن من شىء، فقد وجدت إيزيس جميع أجزاء الجثة ما عدا السوءة. ولما كانت ترغب فى أن تخفى قبر زوجها، وأن تجعله فى الوقت نفسه موضع التقديس من جميع سكان مصر، فقد أنفذت رغبتها هذه على النهج التالى: يحكى أنها صبعت تمثالا من الشمع والعطور قريب الشبه من أوزيريس وفى حجمه، حول كل جزء من أجزاء الجسم، ثم استدعت الكهنة فئة بعد فئة وأخذت عليهم جميعًا العهد على أن لا يبوحوا لأحد ما بما اؤتمنوا عليه من سر، ثم قالت لكل فئة منهم على حدة أنها وكلت إليها أمر دفن الجثة، وجعلت تذكر كل فئة بالنعم التى أسداها أوزيريس، ودعتهم إلى دفن الجثة فى حرمهم الخاص بهم، وحضتهم على تقديسه كإله، وعلى تقديس أحد الحيوانات - أيا اختاروا - باسمه، على أن يقدس الحيوان طالما كان على قيد الحياة، كما كانوا يقدسون أوزيريس من قبل، فإذا نفق، عُدَّ جديرًا بأنت يدفن كما دفن أوزيريس. ولما كانت إيزيس تحرص على أن تدفع الكهنة إلى الاستمساك بهذه التشريفات بدافع من مصلحتهم الذاتية، فقد أعطتهم ثلث الأراضى المصرية فى

(١)فى الأساطير أنه ابن البحر والأرض، وكان يستمد قوته من أمه الأرض بملامسة قدمه لها، ولم يستطع هرقل أن يغلبه إلا بعد أن رفعه فى الهواء.

مقابل قيامهم بعبادة الآلهـة وخدمتها. أما الكهنة، فعرفانًا منهم بأنعم أوزيريـس على حد قولهم، وحرصًا منهم على إرضاء إيزيس، ويحفزهم فـوق ذلك دافـع من المصلحة الذاتية، فقد قامـوا بجميع ما أوحت به إيزيس. وذلك هو السبب فى أن كل جماعة من الكهنة تعتقد إلى يومنا هذا بأن أوزيريس قد دفن بين ظهرانيهم. ولا زالوا يقدسـون الحيوانات التـى خصصت له من قديم الزمان، وعند موتها يسـتأنف الحداد على أوزيريس من جديد عند قبورها، وخصص له العجلان المقدسـان اللذان يسـمى أحدهما أبيس apis، ويسمى الآخر منيفيس mnevis، وفرضت عبادتهمـا كأنهما إلهان على جميع المصريين على السـواء. وذلك لأن نفع هذه الحيوانات عظيم للغاية لمكتشفى الحبوب عند بذر الحب وفى سائر العمليات الزراعية ذات المنفعة العامة.

٢٢ ويقـال إن إيزيس أقسـمت بعد مـوت زوجها ألا تتخذ لها بعـلاً مـرة أخرى، وقد ظلت إلـى آخر أيامها تحكم مصر بالقسـطاس المسـتقيم حتى بزت الجميع فى البر برعيتها. ولما انتقلت بدورها من بين البشـر، وضِعَت فى مصـاف الخالدين، ودفنت بمنفيس حيث يرى ضريحهـا إلـى وقتنا هذا قائمًا فى حرم معبد هيفايسـتوس. ولكن يقول البعض أن جسدى هذين الإلهين ليسا فى منفيس بل يرقدان على الحدود بين الحبشـة ومصر فى جزيرة فى النيل بالقرب من الموضع الذى يقال له فيلاى philae ويطلق على هذه الجزيرة اسـم «السهل المقدس» لذلك السبب. ويستشهدون على صحة دعواهم هذه بقبر أوزيريس الذى يقدسه

كهنــة مصــر أجمعين والذى مــا يزال قائمًا فى هــذه الجزيرة تحيط به ثلثمائة وســتون جرة يملأهــا الكهنة الموكلون بهذا الأمــر لبنا كل يوم باســمى هذين الإلهيــن. ومن أجل هذا حرم دخول هــذه الجزيرة على الغرباء. ويعتبر كل سكان إقليم طيبة وهو أقدم الأقاليم المصرية، القَسَم بأوزيريــس الراقد فــى فيلاى أغلظ الأيمان. ويقــال إن أعضاء أوزيريس التــى عثر عليها قد دفنت كمــا يليق بها بالطريقة التــى ذكرنا. ولكن إيزيس رأت أن سوءته – وقد ألقى بها تيفون فى النهر على حد قولهم لأن جميع أشــياعه أبوا أن يقبلوها – أهل للتقديس مثل سائر الأعضاء. فأقامت لها صورة فى المعابد واختصتها بالتبجيل، وجعلت تلك الصورة أثناء الطقوس الســرية وتقديم الضحايا لذلك الإله، محلا لأبلغ التبجيل وأوفر التقديس. ولذلك يقدســه اليونانيون الذين أخذوا عن مصر الشعائر السرية وعبادة ديونيســوس فى طقوسهم الخفية وشعائرهم السرية وعند تقديم الأضاحى لهذا الإله، وهم يسمون هذا العضو فاللوس phallus.

٢٣ وانقضــى –فيمــا يقال– بين عهد أوزيريــس وإيزيس وبين حكم الإســكندر –الذى أنشأ فى مصر المدينة التى تسمى باسمه – أكثر من عشــرة آلاف سنة. ولو أن بعض المؤرخين يذهب إلى أن الفترة بين هذين العهدين تقل قليلا عن ثلاثة وعشرين ألف سنة. ويقولون إن الذين يزعمون أن أوزيريس هو ابن زيوس وسميلى semele، وقد ولد لهما فى طيبة من أعمال بيوشيا، يلقون القول على عواهنه. ذلك بأنه عند ما زار أورفيوس orpheus مصر، اشــترك فى الشعائر الخفية والطقوس السرية

لديونيسوس. ولما كان أورفيوس صديقًا لبنى قادموس، مكرمًا بينهم، فقد حرف قصة ميلاد ديونيسوس سعيًا فى مرضاتهم، وتقبل الدهماء هذه الشعائر الخفية والطقوس السرية راضين، لجهلهم بالحقيقة من ناحية، ولأنهم أحبوا أن يعتبر الإله يونانيًا من ناحية أخرى. وقد لجأ أورفيوس إلى المعاذير فى تحريفه للرواية الخاصة بمولد الإله وتغييره الطقوس الخفية. فقد كان من بين أبناء قادموس الذى ولد فى طيبة من أعمال مصر، ابنة تدعى سميلى اغتصبها رجل غير معروف فحملت منه، وبعد انقضاء سبعة أشهر، ولدت طفلا اعتقد المصريون أن طلعته تشبه طلعة أوزيريس. ومثل هؤلاء الأطفال لا يولدون عادة أحياء، إما لأن الآلهة لا ترضى بذلك، أو لعلها الطبيعة لا تسمح به. ولما أدرك قادموس ما حدث، وكان قد أوحى إليه أن يحيى شعائر آبائه، غطى الطفل الرضيع بوشاح من ذهب، وقرب إليه الأضاحى التى تناسب مقامه كما لو كان أوزيريس قد تجلى للناس. وكذلك ألحق أبوه الطفل بزيوس، تمجيدًا لأوزيريس ومحوًا للعار الذى لحق بابنته التى هُتك عرضها. وفى العصور المتأخرة أصبح أورفيوس، الذى ذاعت شهرته العظيمة بين اليونانيين، لجودة إنشاده وطقوسه السرية وقصصه عن الآلهة، صديقًا حميمًا لبنى قادموس، ولقى فى طيبة تقديسًا فائق الحد، وبعد أن وقف على عقائد المصريين الدينية، نقل مولد الإله القديم إلى عصر متأخر، وأنشأ إرضاء لبنى قادموس طقسًا جديدًا يبشر فيه المريدين بأن ديونيسوس هو ابن زيوس وسميلى. أما جمهرة الناس

فقـد خدعوا تمامًا إما لجهلهم بالحقيقة أو لاعتقادهم أن أورفيوس أهل للثقة وعارف بهذه الأمور، وتقبل أكثر الناس بسرور الرأى القائل بإن الإله يونانى كما ذكرت آنفا، وتمسـكوا بمناسك عبادته. وبعدئذ تناول القصاص والشـعراء قصة ميلاد هذا الإله وملأوا بها المسارح فأصبحت عقيدة راسخة لا تتغير لدى الناس على مر الدهور.

٢٤ وبالجملـة، فالمصريـون يقولـون إن اليونانييـن ينحلون لأنفسهم أشهر الأبطال والآلهة بل ومستعمرات المصريين. فهرقل مثلا وهو مصرى الأصل استعان بقوته فى جوب مساحة شاسعة من المعمورة وأقام نصبًا على حدود ليبيا. ويحاول المصريون أن يجدوا فى القصص اليونانى أدلة على صحة هذه الدعوى، فبينما يجمع الناس قاطبة على أن هرقـل بذل المعونة لآلهـة أوليمبوس فى حربهم ضد المردة، يقول المصريون إنه من غير الممكن إطلاقا أن تخرج الأرض المردة فى الوقت الذى يقول اليونانيون إن هرقل ولد فيه أى فى الجيل السـابق لحرب طـروادة[1]، بل يرجع المصريون أنفسـهم أن يكون ذلك قد حدث فى بدء الخليقة، ويقع ذلك فى حسـابهم منذ أكثر من عشرة آلاف سنة، فى حين أنه قد مضى على حرب طروادة أقل من مائتين وألف سنة.

هذا إلى أن الهراوة وجلد السبع يناسبان هرقل إذا تخيلناه فى ذلك العصر القديم، ففى ذاك العصر لم تكن الأسلحة قد عرفت بعد وكان الناس يدافعون عن أنفسهم بالهراوة ضد أعدائهم، ويتخذون من جلود الحيوانات دروعًـا واقية. ويقول المصريون إن هرقل بـن زيوس ولكنهم يقولون إنهم

(١)الأناشيد الهومرية: ١ ، ٨ -٩

لا يعرفون من أمر أمه شيئًا. أما ابن الكمينى alcemene فقد ولد بعد ذلك التاريخ بأكثر من عشــرة آلاف سنة وسمِّى عند مولده ألكيوس[1] alcaeus ثم غيَّر الاسم بعد ذلك إلى هرقل، لا لأنه اكتسب شهرته عن طريق هيرا كما يقول ماتريس matris [2] بل لأنه قلد هرقل القديم فى أسلوب حياته فورث شــهرته واســمه. وتتفق أقوالهم مع ما أثر عند اليونانيين من قديم الزمــان من أن هرقل طهَّر الأرض من الوحــوش الضاربة، وهى دعوى لا يمكن أن تلحق بحال ما ببطل ولد حوالى عصر الحروب الطروادية، حين كان الجزء الأكبر من المعمورة قد تحضر وانتشــرت فيه الزراعة وأنشئت المدن وانتشــر الســكان فى كل مكان. وعلى ذلك فإن دعوى تمدين العالم أحرى بأن تلحق بهرقل الذى عاش فى العصور القديمة حين كان لجموع الحيوانات المفترســة الغلبة على الإنسان وخصوصًا فى مصر فى صعيدها الذى ما زال إلى وقتنا هذا بيداء يعمرها الحيوان المتوحش. ومن المعقول أن هرقل حينما اســترعت هذه المنطقة انتباهه – وهى مســقط رأســه– طهَّرها من الحيوانات المفترســة وهيأها للزارعين. فاستحق من أجل هذه المنة المجد الإلهى. ويقول المصريون أن برسيوس perseus أيضًا ولد فى مصر. وأن اليونانيين الذين يروون فى أســاطيرهم أن إيو Io قد مســخت بقرة، جعلوا أرجوس argos مسقط رأس إيزيس.

٢٥ وبالجملــة فقــد اختلفــت الآراء كثيــرًا حول هذيــن الإلهين لأن الإلهة عينها تســمى أحيانًا إيزيس وأحيانــًا أخرى ديميتر وأحيانًا

(١)الأناشيد الهومرية: ١ ، ٨ –٩

(٢)الأناشيد الهومرية: ١ ، ٨ –٩

ثسموفوروس (المقننة) وأحيانًا سيلينى (القمر) وأحيانًا هيرا، بينما يدعوها البعض الآخر بجميع هذه الأسماء. أما أوزيريس فيدعى مرة سيرابيس ومرة أخرى ديونيسوس ومرة ثالثة بلوتو ورابعة آمون ويسميه بعضهم زيوس ويظنه الكثيرون بان نفسه ويذهب البعض إلى أن سرابيس هو الإله الذى يدعوه اليونانيون بلوتو. ويقول المصريون أن إيزيس اكتشف أدواء كثيرة لتحسين الصحة فقد كانت ذات خبرة عظيمة فى فن الطب، ولذلك فإنها تجد لذة عظمى حتى بعد أن رفعت إلى مصاف الآلهة فى مداواة بنى الإنسان. وفى الأحلام تبذل العون لمن يهيبون بها، فتقيم بذلك الدليل الساطع على تجليها الذاتى وحسن صنيعها لمن يلوذ بها من الناس. ويقول المصريون أنفسهم انهم يقيمون الدليل على زعمهم هذا بوقائع بيِّنة، لا بأساطير كالتى يزجيها اليونانيون. ويكاد العالم أجمع[1] يشهد للمصريين على صحة دعواهم، لأن الناس ينافس بعضهم بعضا فى تبجيلها لما تبديه من مظاهر التجلى فى مداواة المرضى، فهى تقف بجانب المرضى فى المنام، وتقدم لهم الدواء لدائهم وتأتى بالمعجزات فى شفاء الذين يسلمون إليها الأمر منهم، وقد شفى على يديها الكثيرون ممن استيأس منهم الأطباء لاستعصاء دائهم، وكثيرٌ ممن فقدوا أبصارهم تمامًا أو اعتل منهم عضو من أجسامهم عادوا إلى حالتهم السابقة لما فزعوا إليها، وقد اكتشفت أيضا إكسير الخلود. ولما تآمر العمالقة على قتل ابنها حورس، ووجدت جثته هامدة تحت الماء، استطاعت بهذا الإكسير لا أن تبعثه حيا وتنفخ فيه الروح فحسب، بل جعلته ينال نصيبه من الخلود

(١)انتشرت عبادة إيزيس بامتداد نفوذ البطالة، ولم تكد تخلو منها مدينة ذات شأن فى حوض البحر المتوسط.

أيضًا. وقد اتفق المؤرخون على أن حورس كان آخر الآلهة من عالم الفانين الذين تبوأوا عرش مصر بعد أن (رفع أبوه أوزيريس إلى السماء) ويقال إن حورس، أحسن إلى الجنس البشرى بالكهانة والتطبيب.

٢٦ ويقدر كهنة المصريين الفترة بين حكم هليوس «الشمس» وبين غزو الإسكندر لآسيا بثلاث وعشرين ألف سنة تقريبًا. وقد حكم أقدم آلهتهم كما جاء فى أساطيرهم أكثر من مائتى وألف عام. وحكم من جاءوا بعدهم فترة لا تقل عن ثلثمائة عام. ولما كان هذا العدد الضخم من السنين غير معقول، فقد حاول البعض أن يفسِّر الأمر بأنه قد جرت العادة من قديم الزمان قبل أن يفطن الناس إلى حركة الأرض حول الشمس، بأن تحسب السنة بدوران القمر، ولما كانت السنة على هذا الاعتبار ثلاثين يومًا، فمن المعقول أن يكون بعض الناس قد عاش مائتى وألف عام. ففى وقتنا هذا، والسنة اثنتا عشر شهرًا، ليس بقليل من يعيش أكثر من مائة عام، ولهم فى أمر الذين اشتهروا بأنهم حكموا أكثر من ثلثمائة عام تفسير مشابه، فهم يقولون إن السنة فى تلك العصور كانت مؤلفة من الأشهر الأربعة التى يتألف منها الفصل الواحد من فصول السنة – الربيع والصيف والشتاء. ولذلك يسمى بعض اليونانيين السنة «فصلًا» والتقاويم السنوية «التقاويم الفصلية».

ولقد جاء فى الأساطير المصرية كذلك أنه ظهر فى عهد إيزيس مخلوقات ذات أجسام متعددة، سماها اليونانيون المردة[1]، وقد صورهم

(١)المردة فى الأساطير اليونانية مخلوقات ذات أجسام هائلة لا متعددة، ويرى فوجل vogel أن النص غير متصل، وأن الأصل كان «سماها اليونانيون المردة، ويسميها المصريون...

المصريــون على جــدران معابدهم فى أوضاع عجيبة وقــد انهال عليهم أشــياع أوزيريس ضربًا. ولكن يقول البعض إن المردة ولدتهم الأرض يوم بدأت الكائنات الحية فى النشــوء. ويذهب البعض إلى أن تواتر القصة بأنهم ذوو أجسام عدة يرجع إلى تفوقهم فى القوة البدنية وإلى ما قاموا به من الاعمال، وقد أجمع الرواة على أنهم أبيدوا جميعًا فى حربهم مع زيوس وأوزيريس والآلهة الموالية لهما.

٣٧ وعلــى نقيــض العرف الســائد بين النــاس أجمعين، يجيز القانــون للمصرييــن أن يتزوجوا من أخواتهم، وذلــك، فيما يقال، لما أحرزتــه إيزيس بينهم من نجــح، فقد كانت حليلة لأخيها أوزيريس، ونذرت عند موته ألا تتخذ لها بعلا مرة أخرى. ثم ثأرت لمقتل زوجها، وظلت تحكم بالقســطاس المســتقيم. وبالجملة، فهى ســبب ما أصاب الناس أجمعين من نعم عظيمة عديدة. ومن أجل هذه الأســباب عينها، جرى العرف على أن يكون للملكة من القوة والجد أكثر مما للملك، وأن يكون للمرأة بين سواد الناس حق القوامة على زوجها. ويتعهد العروس فــى العقد الذى يبرم بشــأن المهر أن يكون مطيعًا لعروســه فى جميع الأمور.

وليــس بخاف علىَّ أن فريقًا من المؤرخين يجاهر بأن قبرى هذين الإلهين يوجدان فى نيســا فى بلاد العرب، ومن هنا دعى ديونيســوس «نيســايوس» وأنه قد أقيم لــكل من هذين الإلهين نصب نقشــت عليه كتابات بالحروف المقدســة. وقد نقشت على عمود إيزيس «**أنا إيزيس**

ملكة الأرض كلها، نشأنى هرمس، ولن يستطيع أحد أن يتحلل مما سننت من شرائع، أنا الابنة الكبرى لكرونوس الرب الأصغر، أنا زوج الملك أوزيريس وأخته، أنا أول من كشف للناس عن الغلال، أنا أمّ الملك حورس، أشرق مع الشعرى اليمانية ومن أجلى أنشئت مدينة باسطوس، مرحى، مرحى يامصر، يامن ربيتنى». ويقال إنه نقش على عمود أوزيريس «أبى كرونوس، أصغر الآلهة أجمعين، وأنا أوزيريس الملك الذى جاب على رأس جيشه الأرض كلها حتى أقاليم الهند المقفرة، والمناطق التى تنحدر نحو الشمال حتى منابع نهر الإيستر[1] ثم قفل راجعًا عبر مناطق أخرى حتى وصل إلى المحيط. أنا الابن الأكبر لكرونوس، وحيث إننى نجمت من بيضة ناصعة شريفة، فقد أصبحت بذرة تضارع النهار منبتًا. وليس فى المعمورة إقليم لم أبلغه مسبغًا على الناس أجمعين الأنعم التى كنت قد اكتشفتها». ويمكن قراءة هذا القدر فقط فيما يقال، من النقوش التى على العمودين. أما الباقى وهو الجزء الأكبر منها فقد محته يد الزمان. ولقد تضاربت عند جمهرة الناس الروايات حول هذين الإلهين وذلك لأن الكهنة بعد أن وقفوا على القول الحق فى هذين الإلهين حفظوا السر فى طى الكتمان ولم يشاءوا أن يطلعوا الجمهور على حقيقة الأمر، بحجة أن الأخطار قد تنتاب كل من عساه أن يطلع العامة على سر هذين الإلهين.

(١)هو نهر الطونة أو الدانوب.

٢٨ ويقـول المصريـون إن جاليات كثيـرة خرجت من مصر منذ ذلك العهد، وانتشرت في جميع أنحاءِ المعمورة، فقد قاد بيلوس belus الذى ظنه الناس ابن بوزيدون poseidon وليبيا، جالية إلى بلاد بابل، وبعد أن أنزلها على شـاطىء نهر الفـرات، نصَّب فيها كهنة على نمط كهنة مصر، معفين مـن الضرائب ومن جميع الواجبات العامة، وهؤلاء الكهنة، ويسـميهم البابليون الكلدانيين، يرصـدون النجوم مقتفين في ذلك آثار كهنة مصر، وهم فلاسفة طبيعيون وفلكيون. ويضيفون إلى ذلك أن الجاليـة التـى نزحت من مصر أيضًا تحت قيـادة دناؤس danaus أسسـت مدينة أرجوس argos التى قد تكون أقدم المدن اليونانية. وأن الكولخييـن colchi في بـلاد بنطش pontus واليهـود فيما بين بلاد العرب وسوريا جاليتان نزحتا عن مصر واستقرتا هناك، ذلك بأن هذين الشعبين قد توارثا من قديم الزمن عادة ختان الأطفال عند الولادة، وهى عـادة مأخوذة عن مصر. وهم يدعون أن الأثينيين أيضًا جالية من مدينة سـايس sais في مصر، ويحاولون أن يقيمـوا الدليل على هذه الصلة. فالأثينيون وحدهم. دون سائر اليونان يسمون المدينة «أستى» asty وهو اسـم مأخوذ من مدينة «أسـتى» في مصر. ناهيك بأن الجمعية الأثينية خضعت لنفس نظام الطبقات السـائد في مصر. فقد قسـمت الأمة إلى ثـلاث طبقات الأولى يدعى أفرادها الأشـراف eupatridea ويتمتعون بأوفـى نصيب من التعليم وهم أهل لأسـمى التكريم فـى أعين الناس،

كما هو الأمر بالنسبة للكهنة فى مصر. والطبقة الثانية تتكون من ملاك الأرض geomoroi وقد كان عليهم أن يتزودوا بالسلاح وأن يحاربوا من أجل بلادهم، مثلهم فى ذلك مثل الطبقة التى تدعى فى مصر طبقة المزارعين، وهى التى تغذى البلاد بالجند. أما الطبقة الثالثة فيندرج تحتها العمال demurgoi الذين يقومون بالحرف الآلية، ويؤدون الأعمال الضرورية للمجتمع، والطبقة التى تقابل هذه عند المصريين ضربت عليها نفس هذه التكاليف.

هذا إلى أن بعض قادة الاثينيين كانوا من المصريين، فبتيس Petes [1] مثلا، والد مينيستيوس MENESTHEUS الذى اضطلع بنصيب فى الحرب ضد طرواده، كان مصريًا بلا جدال، وصار فيما بعد مواطنا ثم ملكا فى أثينا [ومثل هذا يقال عن كيكروبس CECROPS الذى [2]] كان ثنائى الوطن، يونانيا ومصريا فى نفس الوقت، فقد كان ثنائى الجسم أيضًا، جزء حيوانى والنصف الآخر إنسانى.

٢٩ وكذلك يدعون أن إرخثيوس ERECHTHEUS وهو مصرى المولد صار ملكا على أثينا، ويقيمون على ذلك براهين كثيرة نقتطف منها ما يلى: لما حدث ذلك الجفاف الشديد الذى يجمعون على وقوعه، وعم كل أنحاء المعمورة تقريبًا فيما عدا مصر لطبيعة أرضها الخاصة، وأتى على الحبوب وعلى أعداد غفيرة من الناس، استورد إرخثيوس وقد

(١)يسميه هوميروس فى الإلياذة ٣ ،٥٥٢ بيتوس

(٢)العبارة التى بين المعكفين غير واردة فى النص، ولكن الوصف ينطبق على كيكروبس أول ملوك أثينا كما جاء فى الأساطير، وكان نصفه الأسفل فى هيئة ثعبان.

كان علـى صلة وثيقة بمصـر مقادير وفيرة من القمح من مصر إلى أثينا، فنصـب الأثينيون هذا المنعم الذى لاقـوا الخير على يديه ملكا عليهم، ولما ولى المُلك أدخل طقوس عبادة ديميتير DEMETER فى إليوسيس ELEUSIS واسـتحدث طريقتهـا الصوفية ناقلا مراسـم هذه الطرق من مصـر. وقد تواتر القول بأن ديميتير قـد تجلت فى أثينا فى ذلك العهد على زعم أن الحبوب التى سميت باسمها قد أدخلت حينذاك. وقد ظن الناس أن ديميتير اكتشف فى ذاك الحين البذور كما اكتُشفت أول الأمر. أمـا الآثينيون فيقرون من ناحيتهم بأنه لما أتى الجفاف على غلتهم فى الحقـول فى عهد إرخثيوس، وقعت ظاهرة تجلى ديميتير بينهم مقترنة بنعمـة نضوج القمـح، ويضيفون إلى ذلك أن طقـوس عبادة هذه الإلهة وطرقها الصوفية قد أدخلت فى إليوثيس فى ذلك العهد، وأن الآثينيين والمصريين يتشـابهون فى كيفية تقريب الضحايا والقيام بمراسم العبادة التقليدية. ويقولون كذلك أن اليومولبيداى EUMOLPIDAE من سلالة كهنة مصر، وأن الكيروكيس CERYCES [1] من سلالة حملة النواويس، وأن الآثينيين وحدهم من بين سائر اليونانيين يحلفون بإيزيس وهم أشبه ما يكونون بالمصريين فى أفكارهم وعاداتهم، ويأتى المصريون بكثير مما شاكل ذلك من البراهين التى تقوم فيما أرى على النخوة القومية لا على أسـاس من الحقيقة، وذلك ليدعموا دعواهم القائلة بأن أثينا مسـتعمرة مصريـة، يغريهـم بذلك بعد صيت هذه المدينـة. وبالجملة فالمصريون

(١)اليومولبيداى أى سلالة يومولبوس، والكيروكيس أى السفراء، عائلتان من الأشراف فى أثينا وكل إليهما الإشراف على أمور الدين.

يدَّعون أن أسلافهم قد أنفذوا جاليات عديدة إلى كثير من بقاع المعمورة وقد كان منشأ هذه الدعوى سببين: رفعة شأن ملوكهم، وكثرة عدد سكان البلاد. وحيث إنهم لا يقيمون حجة دامغة على صحة دعواهم هذه، ولا يشهد مؤرخ ثقة بصحتها، أرى أن هذه الروايات ليست جديرة بالتسجيل. ولنكتف بهذا القدر من أساطير المصريين بشأن آلهتهم، حرصًا من على تناسق أجزاء قصتنا، وسنحاول أن نورد باختصار فيما يلى وصف أرض مصر ونيلها وسائر ما هو أهل للذكر فيها.

٣٥ تمتد مصر بوجه عام من الشمال إلى الجنوب وقد عرفت بأنها تفوق سائر الأقطار كثيرًا، لحسن موقعها وجمال مناظرها، وتحميها من ناحية الغرب الصحراء الليبية، التى تموج بالحيوانات المفترسة وتمتد إلى مسافات شاسعة. ولقد كانت قلة مياهها وندرة وجود جميع أنواع الغذاء فيها سببًا فى أن اجتيازها لم يكن مضنيًا فحسب، بل خطرًا جدًا أيضًا. أما من ناحية الجنوب، فتحميها شلالات النيل والجبال المتصلة بها. إذ من المتعذر الملاحة فى النهر أو سلوك الطريق البرى من بلاد التروجوديتيس[1] TROGODYTES فى أقاصى بلاد الحبشة وهى مسافة ٥٥٠٠ ستاد، إلا إذا كان المرء مزودًا بعتاد ملكى أو ركب بالغ الفخامة. أما المناطق التى تقع فى الجبهة الشرقية فيحمى بعضها النهر، وتحيط بالبعض الآخر الصحراء، والأرض ذات المستنقعات التى تسمى «الجب» BARATHRA ذلك بأنه توجد فيما بين جوف

(١)تروجوديتيس أى سكان الكهوف وقد عرفهم سترابون ١ ، ٢ ، ٣٤ بقوله «قبيلة من الأعراب تعيش على ساحل البحر الأحمر فيما يلى مصر والحبشة».

سـوريا (غور سـوريا) ومصر بحيـرة ضيقة جدًا ولكنهـا عميقة وطولها حوالى ٢٠٠ سـتاد تدعى بحيرة سربونيس SERBONIS[1] يمكن فيها الخطر لكل من يجوب هذه المنطقة دون سابق معرفة بها، فعرض الماء فيها ضئيل كالشـريط، وتحيط بها الكثبان الرملية من جميع الجهات. وعندمايطـرد هبوب الرياح الجنوبية، تغطى سـطح الماء بكميات كبيرة من الرمال، وهذه تخفى تحتها سطح الماء وتجعل شكل البحيرة مشابهًا للأرض اليابسة المحيطة بها، بحيث لا يمكن تمييزها مطلقا. ولذلك باد الكثيرون من غير العارفين بطبيعة هذا الأقليم، مع جيوش بأسرها، كلما حادوا عن الطريق المطروقة، ذلك أن الرمال حينما يسير عليها الناس، تنهار من تحتهم بالتدريج وتخدع عابرها فى شـىء من المكر السـيىء، حتى إذا ما استشعروا الخطر المحدق، أخذوا فى شد أزر بعضهم ولات ساعة نكوص أو هرب. فكل من تقتنصه هذه اللجة لا يستطيع العوم لأن الوحل يعوق حركة الجسـم، ولا هو بمسـتطيع أن يخوض فيها وليس لقدميـه منها متكأ ركين، فالرمال كما تـرى قد امتزجت بالماء، وأخذ كل من طبيعة الآخر، وهكذا أصبحت هذه المنطقة غير صالحة للسـير أو الملاحـة. ولذلك فـكل من يرتاد هذه البقعة يهبـط إلى أعماقها ولا يجد ما يتشـبث به ليعينه على النجاة، لأن الرمال على الحواف تنهار بمن يتعلق بها، وقد أطلق على هذه السهول اسم مناسب لطبيعتها التى وصفنا، إذ سميت «الجب».

(١)تسمى الآن برديل نسبة إلى بلدوين ملك بيت المقدس الذى مات فيها فى الحروب الصليبية سنة ١١١٨.

٣١ الآن وقد وصفنا المناطق الثلاث التى تحمى مصر من البر، بقى أن نضيف إليها وصف الجهة الباقية فالجهة الرابعة التى يلاطمها الموج على طول الساحل كله تقريبًا دون مرفا ما يحميها «البحر المصرى»[1] إذ الملاحة على طول هذا الشاطىء طويلة مضنية، والرسو عليه متعذر للغاية. فلا يوجد فيما بين برايتونيوم PARAETONIUM فى ليبيا وإيوبى IOPE [2] فى فلسطين وهى مسافة بحذاء الشاطىء طولها حوالى ٥٠٠٠ ستاد تقريبًا، ميناء واحد صالح لرسو السفن سوى ميناء فاروس PHAROS وبغض النظر عن هذه الاعتبارات، فإن شريطا من الرمل يمتد على طول الساحل المصرى لا يمكن رؤيته لغير الملاح المحنك. ولذلك نرى المسافرين الذين يتوهمون أنهم قد نجوا من أخطار البحر ويندفعون نحو الشاطىء فى غفلتهم متهللين يجدون سفينتهم وقد ارتطمت يالياباسة بغتة فتحطمت ويفجعون فيها. ويحدث أحيانا ألا يستطيع بعض الملاحين تمييز هذا الشاطىء الواطىء فتتحطم السفينة على غرة منهم، إما فى منطقة مستنقعات ذات برك آسنة، وإما على بقعة جرداء.

فمصر إذن محصنة تحصينًا طبيعيًا من جميع الجهات كما أسلفا القول، وهى مستطيلة الشكل، طول شاطئها ٢٠٠٠ ستاد وتمتد من الداخل حوالى ٦٠٠٠ ستاد، وقديمًا كانت تبز سائر أرجاء المعمورة جدًا فى كثافة السكان، أما فى عصرنا هذا فالشائع أنها لا تقصر عن أيها فى

(١)يعنى البحر المتوسط فى المنطقة التى يلامس فيها شواطىء مصر

(٢)هى يافا الآن.

هـذا المضمـار. وكان فيها فى العصر القديم ما يزيد على ١٨٠٠٠ مدينة وقرية ذات شـأن كما ثبت فى الوثائق المقدسة، أما فى عصر بطليموس بـن لاجوس[١] فقد عُدَّ منها أكثر مـن ٣٠٠٠٠ [٢] ما زال أكثرها مزدهرًا إلى وقتنا هذا.

ويقال إن تعداد السكان فى العصر القديم كان حوالى ٧ مليون نفسًا وهو لا يقل عن ذلك فى أيامنا هذه. ويرجع الفضل إذن إلى كثرة الأيدى العاملة فيما يحكى من أن الملوك القدماء قد ابتنوا منشآت عظيمة باهرة قامت شاهدًا خالدًا على مجدهم. وسنورد بعد قليل وصفًا دقيقًا لها، أما الآن فسنتكلم عن طبيعة نهر النيل ومميزات البلاد الطبيعية.

٣٢ يجـرى النيـل من الجنوب إلى الشـمال، وينبع من بقعة لم ترها عينان، لأنها فى أقاصى الحبشة فى منطقة لا يمكن لشدة حرارتها أن تطأهـا قدمان. وهو أكبر الأنهار قاطبة، وينحنى انحناءات شـديدة فـى طريقه مخترقًا هذه الرقعة الطويلة من الأرض. فينحرف مرة ناحية بـلاد العرب شـرقًا، ومرة ناحيـة ليبيا غربًا، وطول مجـراه من جبال الحبشـة إلى مصبه فـى البحر بما فى ذلـك منحنياته حوالى ١٢٠٠٠ سـتاد. ويصغر حجم حوض النهر الجنوبى باطراد لانسـياب الماء إلى كلتـا القارتين[٣]، ويتفرع عن النهر فروع عديدة يتجه بعضها نحو ليبيا

(١)هو بطليموس الأول، حكم مصر من سنة ٣٢٣-٢٨٥ ق.م، وقد زار مصر فى عهده المؤرخ هيكاتيوس، فلعل ديودور قد نقل عنه ما أثبت من إحصاءات.

(٢)قال هيرودوت ٢ ، ١٧٧ إن عدد المدن المصرية فى عهد أمازيس (القرن الساس ق.م) كان عشرين ألف مدينة . فلعل ديودور قد أضاف إليها القرى الشهيرة.

(٣)كان الجغرافيون المتقدمون يجعلون من النيل الحد الفاصل بين آسيا وأفريقية.

هذه تتشـــربها الرمال البعيدة الغـــور، ويجرى البعض الآخر فى الناحية المضادة نحو بلاد العرب، وهذه تتحول إلى مستنقعات واسعة وبحيرات عظيمة تعيـــش حولها قبائل عديدة. ويكون عـــرض النهر عندما يدخل البلاد المصرية ١٠ ستاد، ويكون أحيانًا أقل من ذلك عرضا. ولا يجرى فى طريق مستقيمة، بل ينحنى شتى الانحناءات، فينحرف ساعة نحو الشرق، وســـاعة نحو الغرب، وأحيانًا ينكفى، نحو الجنوب فى اتجاه مضاد لاتجاه مجراه الأصلى تمامًا. ذلك أن المرتفعات تمتد على جانبى النهر، وتغطى جزءًا كبيرًا من ضفتيه، وتتخللها ممرات ووديان صخرية ضيقة. فعندما يصطدم النهر بهذه المرتفعات، ينكفى بسرعة إلى الوراء فى الأرض المنبســـطة، وبعد أن يجرى شوطا طويلا إلى الجنوب، يعود ثانيـــة إلى مجراه الأصلـــى. ولقد كانت هذه المميـــزات التى ينفرد بها النيل دون سائر الأنهار سببًا فى أنه النهر الوحيد الذى ينساب فى مجراه دونما عنف أو موج دافق، اللهم إلا فى المنطقة التى تسمى الشلالات. ففى هذه المنطقة – وطولها حوالى عشـــرة ستاد– ينحدر النهر انحدارًا شديدًا، وتحـــده من الجانبين صخـــور عالية تجعل منه برزخًـــا ضيقًا، وهى مليئة بالنتوءات والشـــقوق، وفيها كثير من الصخور، وتدفعه هذه العوائق بشـــدة إلـــى الـــوراء فى اتجاه مضاد لاتجاهه الأصلى، فتكـــون فى النهر دوامات كبيـــرة، يمتلىء مركزها بالزبد، وهى نتيجة اندفاع الماء إلى الوراء. وتلقى هـــذه الدوامات فى قلوب مرتادى هذه البقـــاع روعة بالغة. والواقع أن تيار النهر ســـريع وقوى إلى حد أنه يبدو كالســـهم المنطلق. وفى أثناء الفيضان حيثما تختفى هذه الصخور تحت ســـطح الماء، ويغمر فيض المياة الزاخر

كل هذه المنطقة الصخرية، ينحدر بعض الملاحين على الشلالات عندما تهب الرياح مضادة لهم. ولكن لا يمكن لأحد أن يصعِّد فى النهر عبر الشلالات لأن قوة تدفق الماء تعلو على كل مجهود إنسانى. وهناك شلالات أخرى كثيرة ولكن أكبرها ما يقع على الحدود بين الحبشة ومصر.

٣٣ ويضم النيل بين مياهه أيضًا جزرًا عديدة، كثير منها فى الحبشة، إحداهما عظيمة الاتساع، وتسمى مروى meroe، فيها مدينة شهيرة تسمى باسم الجزيرة، وقد انشأها قمبيز وأطلق عليها اسم أمه مروى meroe، وشكل هذه الجزيرة فيما يقال مثل الدرع الطويلة، وتفوق سائر جزائر هذه البقاع حجمًا بكثير، فطولها ٣٠٠٠ ستاد، وعرضها ١٠٠٠ ستاد. وبها كثير من المدن أشهرها مروى. وتجثم كثبان رملية ممتلئة على طول ساحل الجزيرة المواجه لليبيا الذى تتكسر عليه أمواج النهر، أما الساحل المواجه لبلاد العرب فتعلوه صخور عاتية. وبالجزيرة مناجم ذهب وفضة وحديد ونحاس، هذا إلى كميات وفيرة من الخشب الأبنوس وشتى أنواع الأحجار الكريمة. وبالجملة، فالنهر يكوّن جزرًا كثيرة إلى حد يشكك السامع فى صدق ما يروى عن عددها. فبغض النظر عن الأرض التى يحيط بها النيل فى المنطقة التى تسمى «الدلتا» يوجد أكثر من سبعمائة جزيرة يفلح بعضها الأحباش والنسانيس وسائر أنواع الحيوان، فهى لذلك غير صالحة لسكنى الإنسان.

وعندما يتفرع النيل فى مجراه فى مصر إلى فروع كثيرة يكوّن المنطقة التى تسمى نسبة إلى شكلها «بالدلتا» (المثلث)، أما ضلعاه فالفرعان المتطرفان، بينما يكوّن قاعدته البحر الذى يبتلع مياه النهر من

مصباته العديدة. فالنيل يصب فى البحر من فروع سبعة، أولها من الشرق الفرع البيلوزى والثانى التانيتى ثم المنديسى ثم الفاتنيتى ثم السِبِنيتى، ثم البولبيتى وأخيرًا الفرع الكانوبى ويسميه البعض الفره الهرقلى[1]. وهناك مصبات أخرى صناعية ولكن ليس بنا من حاجة إلى ذكرها. وتقوم على رأس كل من هذه المصبات مدينة مسوّرة يشطرها النهر شطرين، وتمتد منها على جانبى المصب قنطرتان، وقلاع فى مواقع صالحة.

وتخرج من الفرع البيلوزى قناة صناعية تصل إلى الخليج العربى والبحر الأحمر، وأول من قام بهذا العمل نيخو[2] بن بسماتيك، ثم تلاه دارا الفارس الذى سار فى هذا المشروع شوطا بعيدًا ثم تركه ولم يتمه، فقد حذره بعضهم بأنه إذا أتم حفر القناة إلى الخليج فإنه يكون سببًا فى إغراق مصر، فقد أوهموه أن مستوى سطح البحر الأحمر أعلى من مستوى سطح مصر[3]. وقد أتم بطليموس حفر القناة فى عصر متأخر، وأقام عليها فى أكثر المواضع صلاحية هويسًا فريدا فى نوعه، يفتحه كلما أراد المرور ثم يغلقه بعد ذلك مباشرة، وقد تمت هذه العملية بنجاح. ويسمى

(١)سمى هيرودوت ٣ ،١٧٠ الفرع التانيسى بالفرع السايسى والفرع الفاتنيتى بالفرع البوكولى، وقد يكون هذا هو فرع دمياط الآن. أما الفرع البولبيتى فهو فرع رشيد.

(٢)حكم نيخو مصر من سنة ٦٠٩ إلى سنة ٥٩٣ ق.م. وحكمها دارا من سنة ٥٢١ إلى سنة ٤٨٥ ق.م.

(٣)هذه القناة وهى قناة السويس، تتفرع على النيل شمالى بوباسطيس ثم تسير فى وادى الطميلات إلى البحيرات المرة، ثم تنحدر إلى الجنوب وتتصل بالبحر الأحمر. ويرى فريق من المؤرخين أنها ترجع إلى الأسرة التاسعة عشرة ويرى البعض الآخر أنها ترجع إلى الأسرة الثانية عشرة.

فرع النهر الذى ينساب فى هذه القناة باسم حافرها بطليموس وتقع على رأسها مدينة تدعى أرسنوى arsinoe.

٣٤ وتشبه الدلتا جزيرة صقلية فى الشكل، وطول كل من ضلعيها ٧٥٠ ستاد وقاعدتها التى يحف بها البحر طولها ١٣٠٠ ستاد، ويخترقها كثير من القنوات الصناعية، وهى تشمل أخصب أراضى مصر. لما كانت تربتها طمية وسهلة الرى، فهى تنتج محصولات وفيرة من جميع الأصناف. فالنهر يلقى عليها فى فيضانه السنوى بغرين جديد، ويسهل على سكانها رى مساحتها كلها بوساطة الاختراع الذى استحدثه أرخميديس السيراكيوزى، ويسمى نسبة إلى شكله بالحلزون[1]

ولما كان تيار النيل هينًا، وكان النهر يحمل مقدارًا كبيرًا من جميع أنواع التربة، ويجعل من الأراضى الواطئة بركا، فقد تكونت بذلك مستنقعات شديدة الخصوبة تنمو فيها النباتات ذات السيقان المختلفة الطعم، والفاكهة والخضروات التى لا تنمو فى غير هذه البلاد. وكلها ينمو بكثرة تسد حاجة المعوز والمريض. وهى لا تمدهم بغذاء مختلف الألوان دانى القطوف وافر لكل من يحتاج إليه فحسب، بل يقوم عليها كذلك غير قليل من ضرورات الحياة. فالبشنين مثلا، الذى ينمو فيها بكثرة، يصنع منه المصريون خبزهم الذى يقيمون به أودهم. وينمو فيها كذلك القيبوريوم[2] بوفرة، وهو يثمر الحبوب المعروفة بالباقلى القبطى.

(١)يعنى الطنبور.

(٢)القيبوريوم ثمرة الباقلى القطبى nymphaea nelumbo

وفيها كذلك أنواع أخرى كثيرة من الأشجار، منها «الفارسية»[1] التى استوردها الفرس من الحبشة عندما غزاها قمبيز وفاكهتها حلوة المذاق جدًا. أما شجر الجميز فيثمر نوع منه التوت، ويثمر نوع آخر فاكهة تشبه التين، وهذه مثمرة على مدار السنة، ويجد فيها الفقراء ملاذًا سهلا من عوزهم. أما الفاكهة المسماة بالتوت البرى فتقطف أيام التحاريق، وهم يتخذونها عُقْبةً للذيذ مذاقها. ويستخرج المصريون من الشعير شرابًا لا يقل عن النبيذ نكهة، يسمونه (زيثوس zythos جعة)، ولا يستخدمون فى إيقاد مصابيحهم زيت الزيتون، بل زيتًا مستخرجًا من نبات يسمى كيكى kiki (زيت الخروع)، وينمو فى مصر بوفرة كثير من النباتات الأخرى التى تفى بحاجات الإنسان الضرورية، ولكن يطول بنا القول لو تحدثنا عنها.

٣٥ وهناك نوعان متميزان عن سائر الحيوانات الغريبة الشكل التى تعيش فى النيل، هما التمساح وفرس البحر. أما التمساح فبعد أن يكون صغيرًا جدًا يكبر إلى أن يصبح ضخمًا للغاية. فبيضته فى حجم بيض الأوز وبعد أن يفقس يكبر إلى أن يبلغ طول التمساح ست عشرة ذراعًا. وهو يعمر كالإنسان، وليس له لسان[2]. وقد عملت الطبيعة على حماية جسمه بمهارة فائقة، فجسمه كله مكسو بقشر شديد الصلابة، وزوَّد فكاه بأسنان عديدة، وله نابان أكبر حجمًا بكثير من الأسنان. ولا يأكل لحم الإنسان فحسب، بل لحم كل ما يقرب النهر من دواب

(١) شجرة اللبخ.

(٢) للتمساح لسان صغير جدًا.

الأرض. وهو قوى العضة، ويصيب بجراح بالغة إذا أنشب مخالبه، ولا يمكن مداواة الجسم فى موضع عضته. وكان المصريون يصيدونه فى غابر الأزمان بالشص وقد علقت بها قطعة من لحم الخنزير. ولكنهم عدلوا عنها من قديم الزمن إلى الشباك المتينة يصيدونه بها كما يصيدون بعض أنواع الأسماك. ويصيدونها أحيانًا من قواربهم بسهام حديدية يوالون إطلاقها على رؤوسها. وهناك عدد لا يحصى من التماسيح فى النهر وفى البحيرات المتاخمة له إذ أنها كثيرة التوالد وقلما يقتلها الناس، والعرف الذى جرى عليه أكثر أهل البلاد هو أن يعبدوا التمساح كإله، وحيث إن لحمه لا يؤكل فإن صيده عديم الجدوى تمامًا للأجانب. ولما كان فى تكاثره ضرر بالإنسان، فقد جاءت الطبيعة بعلاج ناجع فى ذلك، فالحيوان الذى يسمونه إخنيومون ichneumon (النمس) يروح مهشمًا البيض الذى يضعه التمساح على حافة النهر، ومما يدعو إلى أشد العجب، أن النمس، وهو لا يأكل هذا البيض ولا يستفيد منه فى أى وجه، يثابر على أداء هذه الخدمة الطبيعية والضرورية لخير الإنسان.

أما الحيوان المسمى «بفرس النهر» فلا يقل طوله عن خمس أذرع، وله حوافر مشقوقة كحوافر الثور، وله ثلاثة أنياب على كلا الجانبين وهى أكبر من أنياب الخنزير البرى، أما أذناه وذيله فتشبه آذان الخيول وذيولها وصوته يحاكى صهيل الفرس، ويماثل جسمه بوجه عام جسم الفيل، وجلده أخشن من جلود سائر الحيوان. ولما كان البحر حيوانًا بحريًا وبريًا على السواء، وهو يقضى نهاره فى الماء غائصًا فى أعماقه، أما الليل فيقضيه على الأرض، يرعى القمح والتبن، فلو أنه كان كثير

التوالد، يلد كل عام، لأتى على حقول مصر كلها. ويجتمع لصيده جمهرة من الرجال، يقذفونه بحراب حديدية. فعندما تقع عليه أعينهم، يلتفون حوله بقواربهم ويصيبونه بجروح عديدة بآلة حادة كالأزميل مثبتة فى حربة حديدية. ثم يربطون أحد هذه الحراب المغروسة فى جسمه بطرف حبل، ثم يرخون له من الحبل وينتظرون إلى أن تنهك قواه لكثرة ما ينزف من دم. ولحمه خشن عسر الهضم، وليس من أعضائه الداخلية ما يؤكل، سواء فى ذلك الأحشاء[1] والمصارين.

٣٦ وفى النيل بجانب ما ذكرنا من حيوان أعداد لا تحصى من مختلف أنواع الأسماك، فهو لا يمد السكان بكميات وفيرة من الأسماك الطازجة فحسب، بل لهم منه معين لا ينضب للتمليح، وبالجملة، يفوق النيل سائر أنهار العالم منفعته للإنسان. فهو يبدأ فى الارتفاع فى الانقلاب الصيفى ويظل فى زيادة مطردة إلى زمن الاعتدال الخريفى ويجلب الطمى الحديث طوال هذه الفترة، ليخصب الأرض البور، وحقول الحبوب، وبساتين الأشجار زمنا يتوقف طوله على مشيئة الزراع. ذلك أن مياه النهر تنساب بلطف، ففى استطاعتهم أن يوجهوها إلى حقولهم بوساطة سدود منخفضة ثم يخلون لها السبيل بسهولة بقطع هذه السدود كلما عنت لهم فى ذلك فائدة. وفى الحق جعل النيل الزراعة سهلة ميسرة إلى حد أن الفلاحين يستريحون من عملهم فى انتظار جفاف الأرض، وبعد بذر الحب يستخدمون ماشيتهم فى غرسه فى الأرض، ثم يعودون إلى الأرض بعد أربعة أو خمسة أشهر للحصاد. ويستعمل بعض

(١) يعنى بالأحشاء القلب والكبد والرئتين والكليتين.

الـزراع محاريث خفيفة لحرث أديم الأرض بعد ريها، وبعد ما يجمعون حصادهم أكداسا بقليل من النفقات والمشقة. فعند سائر الشعوب تحتاج جميع الأعمال الزراعية على العموم إلى مشـقة كبيرة وتكاليف باهظة، وفـى مصر وحدها لا تتطلب هذه الأعمال سـوى مجهود تافه وتكاليف ضئيلة. والكروم، وهى تروىبنفس الطريقة، تدر كميات وفيرة من النبيذ أما السـكان الذين يتركون الأرض بعد جفافها مرعى لماشيتهم فيجنون ثمار ذلك، لأن الماشـية نظرا لخصوبـة المرعى مرتين فى العام، وتجز أصوافها مرتين كذلك.

وتبدو ظاهرة فيضان النيـل غريبة للذين يرونها رأى العين، وهى أمر غير معقول عند من تصلهم عن طريق السـماع فحسـب. فبينما تبدأ كل أنهـار العالم فـى الهبوط فى الانقلاب الصيفى ثم تأخذ فى الارتفاع باطـراد طـوال فترة الصيف التالية، يبدأ نهـر النيل وحده فى الارتفاع فىذلـك الوقـت ويزيد يوما بعد يوم إلى أن يغمـر فى النهاية كل مصر تقريبا. وكذلك يسـلك فيما بعد أسـلوبا عكسيا فيأخذ فى النقصان يوما بعـد يوم لمدة تضاهى الفيضان، حتى يعود إلى منسـوبه الأصلى. ولما كانت الأرض سـهلا مسـتويا، والمدن والقرى والمسـاكن الريفية قائمة على تلاع صناعية، فإن منظهرها حينئذ مشـابها لجزر السيكلاديس[1]. أما الحيوانات الأرضية المفترسـة فيقضى النهـر على معظمها ويغرقها بمياهـه، وبعضها ينجـو بحياته بلجوئه إلى المرتفعات. أما الماشـية فتُعلف إبان الفيضان فى القرى والمساكن الريفية حيث يخزن لها العلف

(١)مجموعة من الجزائر الصغيرة تحيط بجزيرة ديلوس

من قبل. أما عامة الشعب فتجنح طوال وقت الفيضان ـ وقد ارتفع عنها عبء العمل ـ إلى اللهو. فتجعل من أيامها كلها أعيادا وتتمتع ولا حرج بكل أسباب السرو.

ولقد كان ما يعلق على ارتفاع النيل من الأهمية حافزا للملوك إلى إقامة «مقياس النيل» فى منف، وعهد فى إدارته إلى خبراء يقيسون ارتفاعه بالضبط، وينفذون الرسائل إلى المدن يبلغون الناس فيها بمقدار ارتفاع النهر بالأذرع، وميقات انخفاضه بالضبط. وحينما يعلم الشعب بهذه الطريقة أن النهر توقف عن الارتفاع، وأخذ فى الهبوط، يذهب عنه انزعاجه، ويعرف سلفا مقدار المحصول القادم بالضبط، ذلك بأن المصريين يحتفظون بسجلات أثبتت فيها ملاحظاتهم فى ذلك الأمر مدى حقب طويلة.

٣٧ ولما كان فيضان النيل ظاهرة مستعصية التفسير، فقد أخذ الكثيرون من الفلاسفة والمؤرخين على عاتقهم مهمة تعليلها. وسأتحدث عن ذلك باختصار، فلا نستطرد استطرادا طويلا، ولا نهمل إثبات أمر يتوق الناس كلهم إلى معرفته. وبالجملة فمشكلات فيضان النيل، ومنابعه وصبه فى البحر، وسائر هذه المميزات التى انفرد بها النيل ـ أكبر أنهار المعمورة ـ عن بقية الأنهر، قد تركها بعض المؤرخون دون أن يجرؤوا على أن يقطعوا فيها برأى، فى حين أنهم يسترسلون أحيانا فى القول عن بعض الأمطار الشتوية. وانبرى البعض الآخر للتحدث عن هذه المسائل ولكنهم حادوا كثيرا عن جادة الصواب. فقد لجأ هيلانيكوس

Hellanicus وكادموس Cadmus مثلا، وكذلك هيكاتيوس Hecataeus ومن لف لفهم من الكتاب ـ وكلهم ينتمون إلى المدرسة القديمة[1] ـ إلى التعليلات الخرافية. أما هيرودوت، وقد كان باحثًا ومدققًا للغاية، وواسع المعرفة بالتاريخ، فقد حاول حقا تفسير هذه الظاهرة. ولكن نظرياته ـ كما ثبت الآن – متناقضة. وأحجم كزينوفون Xenophon وثوكيديديس Thucidides اللذان نالا إعجاب الناس لدقة رواياتهما عن وصف أرض مصر كلية أما إيفورس Ephorus وثيوبومبوس Theopompus[2] اللذان أوليا هذه المسائل كل عنايتهما، فقد كانا أقل الكتاب إصابة لمحجة الصواب. ولا ترجع خيبة هؤلاء الكتاب أجمعين إلى الإهمال بل إلى خصائص هذه البلاد الفريدة. فمنذ العصور القديمة إلى عهد بطليموس الملقب بفيلادلفوس[3]، لم تطأ قدم يونانى واحد بلاد الحبشة، بل لم يبلغ أحد منهم حدود مصر الجنوبية، فكل هذه المناطق لم تكن معروفة للأجانب وكانت خطره للغاية. والملك السالف الذكر هو أول من أرسل

(١)المدرسة القديمة هى طبقة الكتاب الذين عنوا بكتابة التاريخ نثرا وقد أولوا الأساطير اهتماما كبيرا ولم يكن لهم نصيب كبير من ملكة النقد. هيلانيكوس المتليينى ولد سنة ٤٨٠ وعاش حوالى ٨٥ سنة ، وهو أول من قوم تاريخ بلاد اليونان. كادموس الملطى لا يعرف عنه شىء على وجه التحقيق. هيكاتيوس الملطى ولد سنة ٥٥٠ ق.م وزار مصر حوالى عام ٥٢٦ ق.م وقد ألف كتابين أحدهما فى وصف العالم، والآخر فى الأساطير اليونانية ومات حوالى سنة٤٧٦ ق.م

(٢) ثيوبومبوس ألف كتابا فى تاريخ اليونان أكمل به تاريخ ثوكيديدس إلى عام ٣٩٤ ق.م وكتابا فى تاريخ فيليب المقدونى.

(٣)هو بطليموس الثانى حكم مصر من سنة ٢٨٥ ـ ٢٤٦ ق.م تزوج بأخته أرسنوى وسمى بعد موته فيلادلفوس أى « المحب لأخته».

جيشا من اليونانين لغزو بلاد الحبشة، ومنذ ذلك الحين تصلنا معلومات أكثر دقة عن هذه البلاد.

هذه إذن أسباب جهل المؤرخين المتقدمين. أما عن منابع النيل، والمنطقة التي ينبثق منها النهر، فلم يدع أحد حتى كتابة هذه السطور رؤيتها، ولم يورد أحد وصفًا لها عن لسان قوم ادعوا رؤيتها. وهكذا ما برحت هذه المسألة مجالا للتخمين والتكهن. ويذهب كهنة المصريين إلى أن النيل يستمد مياهه من الأوقيانوس الذى يحيط بالمعمورة، ولكن لا نصيب لقولهم هذا من الصحة. فهم يحلون مشكلة بمشكلة أخرى، ويزجون بمثابة برهان حُجة تفتقر فى ذاتها إلى برهان دامغ. وتقول طائفة من التروجوديتيس Trogodytes وهى التى نزحت من المنطقة الداخلية لشدة حرارتها وتسمى قبيلة البولوجيينBolgii، أن هناك من الظواهر ما يشير إلى أن أنهارًا كثيرة تلتقى فى مكان واحد وتكون مجرى النيل، وأن هذا هو السبب فى أنه أكثر الأنهار المعروفة إخصابًا. ويميل المرء إلى الركون إلى قول سكان الجزيرة المعروفة بمروى Meroe لأنهم أبعد ما يكونون عن التماس عللٍ تناسب ما يتصورون من فروض، ولأنهم كذلك أقرب الناس إلى هذه المنطقة موضوع بحثنا. ولكنهم فضلا عن أنهم لا يقطعون برأى فى هذه المسائل، سموا النهر أستابوس Astpus ومعناها فى اليونانية « مياه من الظلام»، مطلقين عليه اسمًا يتفق مع ما يعوزهم من دقة وملاحظة هذه البقاع وشدة جهلهم بها. والرأى عندنا أن أقرب التعليلات إلى الحقيقة أبعدها عن التكهنات.

ولست بجاهل أن هيرودوت[1] في تفرقته بين ليبيا التى تقع إلى الشرق من النهر وليبيا التى تقع فى غربه، عزا إلى القبائل الليبية المعروفة بالنساموننين Nasamones[2] البحث عن مصدر النهر. وقال إن النيل ينبع من إحدى البحيرات ثم يسير مسافة طويلة جدًا فى الأرض الحبشية، ولكن لا يمكن أن نثق لأول وهلة بقول الليبيين . ولا كان ما قالوه صدقًا، ولا بقول مؤرخ تفتقر روايته إلى برهان.

٣٨ والأن بعد أن تكلمنا عن منابع النهر ومجراه، سنحاول أن نورد أسباب فيضانه. يقول طاليس Thales[3]، وهو أحد الحكماء السبعة، إن الرياح التجارية تهب فى اتجاه مضاد لمصب النهر. فتمنعه من أن يصب فى البحر. وإن هذا هو السبب فى ارتفاع النهر، وفيضانه على أرض مصر وهى سهل منخفض. ولكن، بالرغم من وجاهة هذا التفسير، فمن السهل إظهار بطلانه، فلو أن هذا التعليل كان صحيحًا لفاضت للأسباب عينها كل الأنهار التى تواجه الرياح التجارية مصباتها. وحيث إن هذا لا يحدث فى أى جزء من المعمورة، فيجب أن نولى وجهنا ناحية أخرى بحثًا وراء السبب الحقيقى للفيضان. ويذهب الفيلسوف الطبيعى أناكساجوراس Anaxagoras إلى أن سبب الفيضان هو ذوبان الثلوج فى الحبشة، وقد شايعه فى رأيه هذا تلميذه الشاعر يوريبيديس Euripides حيث يقول:

(١) هيرودوت ٢، ٣٢.

(٢) قبائل رحل تعيش حول خليج سدرة فى شمال أفريقية.

(٣) طاليس الفيلسوف اليونانى عاش فى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد.

« لقد هجر أطيب أمواه الأرض
« النيل الذى ينبثق فائضًا
من أرض الأحباش ذوى البشرة السوداء
« كلما ذابت الثلوج..

والواقع أن هذا التفسير لا يحتاج إلى كبير عناء لتنفيذه، فمن الجلى أن سقوط الثلوج فى الحبشة أمر مستحيل لشدة الحرارة هناك. وعلى العموم، فليس فى هذه البقاع جليد أو برد أو أى علامة من علامات الشتاء وخصوصًا فى وقت فيضان النيل. وحتى إذا سلمنا بأن هناك ثلوجًا متراكمة، فالدليل مازال قائمًا على بطلان هذا التعليل، إذ من المسلم به أن كل الأنهار التى تصدر عن ذوبان الثلوج تثير تيارات باردة من الهواء، وتكوّن ضبابًا، هو النهر الوحيد الذى لا تعلوه الغيوم الكثيفة، ولا الرياح الباردة ولا الضباب.

أما هيرودوت[1] فيقول إن منسوب النيل الطبيعى هو ذلك الذى يبلغه أيام الفيضان. ولكن يحدث فى الشتاء أن الشمس عندما تسامت الصحراء الليبية، تبخّر كثيرًا من مياه النهر فيقل ارتفاعه عن منسوبه الطبيعى. وعندما يأتى الصيف، وتنتقل الشمس فى مدارها إلى الشمال، تجفف وتقلل مياه أنهار بلاد اليونان وسائر الأقطار التى تناظرها موقعًا[2] وإذن فظاهرة فيضان النيل فى رأيه لاتدعو إلى العجب، لأن النهر لا يرتفع فى حرارة الصيف، بل ينخفض فى الشتاء للسبب المتقدم.

(١)هيرودوت ٢ ،٢٥.

(٢)أى التى تقع على نفس خط العرض الذى تقع عليه بلاد اليونان.

وينبغـــى لنا الآن أن نقول ردًا على هيرودوت أنه كما أن الشـــمس تبخر فى الشتاء مياه النيل، يتحتم أن تبخر مياه أنهار ليبيا كذلك، وتخفض من منسوبها. ولما كانت هذه الظاهرة لا تلاحظ فى أى مكان فى ليبيا، فمن الجلى إذن أن مؤرخنا يلقى الكلام على عواهنه، هذا إلى أن فيضان أنهار بلاد اليونان فى الشـــتاء لا يرجع إلى بعد الشـــمس عنها، بل إلى كثرة هطول الأمطار فى هذا الموسم.

٣٩ يقـــول ديموقريطس الأبـــدرى[1] إن الثلوج لا تكســـو المناطق الجنوبية كما يّعى يوريبيديس وأناكســـاجوراس، بل المناطق الشـــمالية كما هو واضح لكافة الناس. وإن أكداس الثلج المتراكمة فى الشمال تظل متجمدة إبان الانقلاب الشـــتائى. أما فى الصيف فتفتت الحرارة الثلوج فتصير كله فى حالة ذوبان. وهذه تكوّن سحابًا كثيفًا فى المناطق الأكثر ارتفاعًا، حيث يصعد البخار بكثرة، وهذا الســـحاب تحمله ـ كما يقول ـ الرياح التجارية إلى أن يلاقى أعلى جبال العالم، وهى جبال الحبشة فى زعمه، وهنا حين يصطدم الســـحاب بقوة بهذه الجبال يسقط أمطارًا غزيـــرة، وهى التى تســـبب فى رأيـــه فيضان النيل، فى موســـم الرياح التجارية بالضبط.

من الســـهل دحض هذه النظرية كذلك بمراجعـــة ميقات الفيضان بالدقة، فالنيل يبدأ فى الأرتفاع فى الانقلاب الصيفى قبل أن تبدأ الرياح التجارية فى هبوبها، ويأخذ فى الانخفاض بعد الاعتدال الخريفى، بعد أن يتوقـــف هبـــوب الرياح بكثير. فـــإذا تحطمت النظريـــة المعقولة أما

(١)معاصر لسقراط وهو أول من ألف من اليونانيين الموسوعات، وصاحب النظرية الذرية.

الحقائق الدقيقة المستقاة من التجربة، وجب علينا مع اعترافنا بنبوغ الفيلسوف أن نحجم عن الأخذ برأيه. وإنى أذكر حقيقة أخرى تلك هى أن الرياح التجارية كما ترى، تهب من الغرب كما تهب من الشمال ذلك أن ما يسمى بالرياح التجارية ليس الرياح الشمالية فحسب أى البورياس والأباركتياس بل الرياح الشمالية الغربية كذلك التى تهب من موضع غروب الشمس صيفاً[1]، وكذلك ما يقرّره من أن جبال الحبشة هي في الواقع أعلى جبال العالم ، لا يفتقر إلى دليل فحسب، بل هو أيضا ليس أهلا لما يجدر بالحقيقة الملموسة من تصديق[2].

ويتحفنا إيفورسEphorus بأطرف التفسيرات ، ولكنه فى سعيه وراء الحجج المقبولة فى روايته ،يخطئ محجة الصواب كلية. يقول إيفورس إن تربة مصر كلها طمية ومسامية مثل حجر الخفان مملوءة بمسام كبيرة ممتدة، تمتص عن طريقها كميات وفيرة من الماء، وتختزنها طوال فصل الشتاء، أما فى فصل الصيف فتفرزها فى كل مكان، كجداول من العرق، وهذه تسبب زيادة منسوب النهر. ويبدو لنا أن هذا الكاتب لم يفحص بنفسه طبيعة أرض مصر، ولم يتحر عنها بشئ من الدقة من أولئك الذين خبروا طبيعة هذه البلاد. فأولا، إذا كان النيل يتلقى زيادته من مصر نفسها فليس هناك إذن ما يدعو إلى فيضانه فى مجراه الأعلى حيث ينساب النهر من أرض صخرية جرداء. والواقع من الأمر أن النهر يفيض قبل أن يصل إلى مصر فى مجراه الممتد إلى

(١)أى الشمال الغربى

(٢) يعنى أنه ليس لدينا دليل ملموس على شدة ارتفاع جبال الحبشة.

أكثر من ستة آلاف استاد من أراضى الحبشة. وثانيًا، لو كان قعر النهر أكثر انخفاضًا من مسام التربة الطمييية، لبدت المسام إذن على سطح الأرض وأصبح من المتعذر أن تحتفظ بهذه الكميات الكبيرة من الماء فى باطنها. أما إذا كان النهر أعلى من مستوى المسام، تعذر تسرب المياه من المستوى المنخفض إلى مياه النهر العالية. وبالجملة، فهل يعقل أن ما تفرزه الأرض من مسامها يمكن أن يزيد من مياه النهر إلى حد أنه يغمر كل مصر تقريبًا. وإنى أجاوز قول إيفورس الفاسد عن التربة الطمييية والمياه التى تخزن فى مسامها فبطلانه بين جلى. ففى آسيا مثلا قد كون نهر ميائدر مساحة كبيرة من التربة الطمييية ولكن لم تلاحظ فيما يتصل به من ظاهرات، ظاهرة واحدة تشابه فيضان النيل. وكذلك الحال بالنسبة لنهر أخيلوس فى أكرنانيا ونهر كيفيسوس فى بيوشيا الذى ينبع من فوكيس، فإن كليهما كونا مساحات واسعة من التربة الطمييية وهما يقدمان برهانًا قاطعًا على فساد نظرية المؤرخ. وعلى أى حال، فلا ينبغى لأحد أن يطلب الدقة عند إيفورس بعد أن رأينا أنه لا يعبأ كثيرًا باستقراء الحقيقة فى كثير من المسائل.

وحاول بعض فلاسفة منف أن يأتوا بتفسير لظاهرة الفيضان، فجاء تفسيرهم غير معقول بالرغم من تعذر دحضه، وقد أخذ به الكثيرون. فهم يقسمون الأرض إلى ثلاث مناطق، إحداها تكونّ عالمنا المسكون هذا، والثانية تكون فيها الفصول بعكس ما تكون عندنا تمامًا، أما الثالثة وتقع بين الاثنتين فلا يسكنها الناس لشدة حرارتها. فلو أن النيل يفيض فى الشتاء لكان من الجلى أنه يتلقى هذه المياه الزائدة من

المنطقة التى نعيش فيها لأن الأمطار الغزيرة تسقط عندنا فى هذا الفصل علـى الخصوص. ولكن فيضـان النهر، على العكس من ذلك، يكون فى فصل الصيف، فمن المرجح إذن أن أعاصير الشـتاء تتجمع فى المنطقة المقابلة(الجنوبية) وينسـاب ما يزيد من مياه هذه المنطقة البعيدة إلى عالمنا هذا، وهذا فيما يقولون هو السبب فى أنه ما من أحد استطاع أن يصل إلى منبع النيل لأنه ينسـاب فـى المنطقة المقابلة لنا، ثم يجرى إلينـا عن طريق المنطقة غير المكونـة. ولقد اتخذوا من فرط عذوبة مياه النيل شـاهدًا على صحة دعواهم، لأن مـاء النهر يلطف فى مجراه فى المنطقة الحارة بتأثير الحرارة، وهكذا كان النيل أعذب الأنهار جميعًا، إذ من الطبيعى أن الحرارة تلطف جميع السوائل.

وهنـاك حجة قريبة لدحض هذا الوهم، فمـن الجلى أنه من غير المعقول أن ينسـاب نهـر مصعدًا فى عالمنا المعمـور هذا، من المنطقة المعمورة المقابلة لنا، خصوصًا إذا أخذنا بنظرية أن الأرض كروية الشكل. وحتى إذا تعسف المرء فى استدلالاته، وضرب بالحقيقة السافرة عرض الأفق، ما أفسـحت طبائع الأشياء عن الطريق لهذه النظرية. وبالجملة، فإنهم يتوهمون أنه بوضعهم العالم الخلاء بين المنطقتين المعمورتين، قد أتـوا بنظرية لا تقبـل التجريح، إذ أبعدوا بينها وبين البحث التجريبى الدقيق. ولكن ينبغى لمن يتعسف فى نظرياته فى بعض المسائل أن يأتى بالدليل عليها من الحقيقة الواقعة، أو يقيم وبراهينه على فروض تدعو إلى التصديق لأول وهلة. فكيف تأتى لنهر النيل أن يكون النهر الوحيد

الـذى يجرى من ذلك العالم المعمور المقابـل إلى عالمنا؟ فمن المعقول أن يكـون هنـاك أنهار أخرى تماثله كما هو الحـال عندنا. هذا إلى أن الأسباب التى يعزون إليها عذوبة مياه النهر سخيفة جدًا. فلو أن النهر اكتسب عذوبة مياهه بفعل الحرارة، لما كان كما هو الآن مخصبًا يغذى جميع أنواع الأسماك والحيوان. ذلك أن جميع الأمواه التى تتغير طبيعته بتأثيـر العنصر الحرارى تفقد قدرتها على إنماء الكائنات الحية. وإذن، فحيث إن طبيعة النيل تنقض تمامًا نظرية تأثير مياهه بالحرارة فيجب أن نعتبر ما أوردوا من أسباب للفيضان فاسدًا.

ويقـر أوينوبيديـس Oeneopides[1] الخيـوى أن الماء الجوفى يكون باردًا فى الصيف، أما فى الشـتاء فيكون على العكس حارًا كما نرى بوضوح فى ماء الآبار العميقة، ففى منتصف الشـتاء يكون ماؤها أبعـد ما يكون عن البرودة، أما فى حمارّة الصيف فيسـتنبط منه ماء بـاردا جدا. فمن المعقول فى رأيه إذن أن ينخفض النيل فى الشـتاء ويقل ماؤه. حيث تسـتهلك حرارة الأرض أكثر مائه، وليس فى مصر أمطـار، أمـا فى الصيف، وليس هناك من اسـتهلاك للماء فى باطن الأرض فيزيد النهر ماشاء. ونقول فى الرد على هذه النظرية إن كثيرًا مـن أنهار ليبيا التى تناظر نهر النيل فـى موقع مصباتها ومجراها، يشـابه مجراه، لا تفيض بالرغم من ذلك مثله، بل بالعكس تزيد فى الشـتاء وتنخفض فى الصيف، فهى تقـدم برهانًا على عبث محاولة خنق الحقيقة بالمنطق المعقول.

(١) فلكى ورياضى عاش فى القرن الخامس ق.م

أمـا أجاثارخيديـسAgatharchides[1] الأكنيدى فقد كان أقرب إلى لإصابة الحقيقة من سواه، فهو يقرر أن الأمطار تهطل كل عام على جبال الحبشـة مسـتمرة من الانقلاب الصيفى إلى الاعتدال الخريفى، فمن المعقول إذن أن ينقص النهر فى الشـتاء لأنه يسـتمد مياهه حينئذ من ينابيعه فقط، أما فى الصيف فيزيد بسبب الأمطار التى تتدفق إليه. فإذا لم يكن أحدٌ اسـتطاع إلى وقتنا هذا أن يعلل أسـباب سـقوط هذه الأمطار فليس ذلك ـ فيما يقول ـ بمبررفى رفض رأيه الشخصى هذا لأن الطبيعة تأتى بكثير من المتناقضات، ومن المتعذر على الإنسان أن يبيّن أسـبابها بدقة ويؤيد نظريته ـ فيمـا يعتقد ـ ما يحدث من ظاهرات فى بعض أصقاع آسـيا. فعلى حدود سـكيثيا Scythia عند اتصالها بجبال القبج Caucisus يحدث سـنويًا ـ بعد انقضاء فصل الشـتاء ـ أن تنهمر كميات بالغة من الثلوج أيامًا كثيرة متتالية، ويحدث فى بعض الفصول أن يسقط البردُ على سفوح الهند الشمالية فى حجوم وكميات لا يتصورها العقل .وتهطل الأمطار باستمرار بالقرب من نهر هيداسيبسHedaspes فـى أول فصـل الصيف، وبعض أيام قلائل يتكرر الأمر نفسـه فى بلاد الحبشـة. وهذه العوامل الحيوية التى تحيط دائمًا بالمنطقة كلها تسبب المناخ الشتوى هناك، فليس إذن ما يدعو إلى العجب ـ فى زعمه ـ من أن الأمطار تهطل باسـتمرار فوق جبال الحبشـة، وهى أكثر ارتفاعًا من مصـر، فتنحدر فى فصل الصيـف، وتزيد فى مياه النهر، خصوصًا وأن أهل تلك البلاد يؤيدون هذه الحقيقة الواضحة. فبالرغم من أن ما يقررونه

(١)مؤرخ وجغرافى عاش فى القرن الثانى ق.م.

يناقض ما خبرنا، إلا أن ذلك لا يدعو إلى تكذيبهم ، فالرياح الجنوبية وهى عندنا رياحُ إعصارية، تسبب فى الحبشة جوًا صحوًا، والرياح الشمالية فى أوروبا عاتية، فى حين أنها فى تلك البلاد بليلة عليلة.

والآن، فبالرغم من أننا نستطيع أن نسوق أدلة أخرى ردًا على كل من جاء بتعليل لظاهرة فيضان النيل، إلا أننا سنكتفى بما أسلفنا، حتى لا نعدو ما عقدنا العزم عليه بادىء ذى بدء من حدود الاختصار.

ولما كنا قد قسمنا هذا الكتاب ـ لطوله ـ إلى قسمين حرصًا منا على تناسب أجزاء هذا السفر، فسننهى هنا هذا القسم من تاريخنا هذا.

وسنورد فى الجزء التالى بقية تاريخ مصر، مبتدئين بالكلام عن ملوك مصر وعن الحياة فى مصر فى أقدم العصور.

الجزء الثانى

إن الكتاب الأول من تاريخ ديودور ينقسم ـ لضخامته ـ إلى جزءين. يشتمل الجزء الأول منهما على مقدمة للعمل كله، وعلى معتقدات المصريين فى نشأة الكون، وتكوين العالم فى البدء، وفى الآلهة التى أنشأت فى مصر مدنًا ونسبتها إلى نفسها، وعلى آرائهم فى الأناسى الأول، وفى أسلوب الحياة فى العصر القديم، وفى عبادة الآلهة الأزلية، وفى بناء المعابد، وعلى وصف البلاد المصرية، والروايات التى تحاك حول نهر النيل، وأسباب فيضانه، وآراء المؤرخين والفلاسفة فى ذلك. ويحتوى كذلك على تفنيد كل آراء المؤرخين والفلاسفة فى